أماكن التنزه ومظاهر اللهو والتسلية في العصر الفاطمي من خلال شعر شعرائهم

د . زياد محمد جبالي[1]

تقديم:

لقد أسس الفاطميون دولتهم بمصر واستمرت نحو قرنين من الزمان، تحولت فيهما مصر إلى ما يشبه إمبراطورية ضخمة ، حيث امتد سلطانها من شواطيء إفريقيا الشمالية إلى بلاد الموصل شرقاً ، كما كانت في حوزتهم اليمن والحجاز جنوباً ، وبذلك كثر خراجها وأخذ في التزايد فعندما نزل جوهر الصقلي القاهرة كان الخراج نحو مليون ومائتي ألف دينار وصل إلى خمسة ملايين ونصف من الدنانير لعهد الخليفة المستعلي . وكانت المكوس تفرض على كل شيء حتى قال المقريزي : إنه لم يسلم منها حينئذ إلا الهواء(١).

ويذكر المقدسي أنه كان يجيء من تنيس يومياً ألف دينار على كل ما تنسج من الثياب(٢)، ويقول المقريزي: إنه بلغ المتأخر على تنيس في ثلاثة سنوات مليون دينار ومليوني درهم .(٣)

ولما كانت مصر مطبوعة عل الحضارة الراقية ، فإن الفاطميين أنشئوا فيها بمجرد فتحها سنة ٣٥٨ هـ/ ٩٦٩ م مدينة ملكية لتكون مقر سكانهم وبلاطهم(٤)، هذه المدينة: القاهرة – المدينة الخاصة– التي كانت تحيط بها حوائط ضخمة، وتثقبها الأبواب من كل جانب؛ فأصبح في مصر – لأول مرة – بلاط خلفاء ينافس بلاط بغداد(٥).

ولقد عرفت مصر قبل مجيء الفاطميين عظمة بلاط الطولونيين والإخشيديين، إلا أن أمراء هاتين الدولتين كانوا يدينون بالولاء لخلفاء العباسيين، ولذا كان بلاط كل منهما على نسق البلاط في بغداد وسامراء في

(1) مدرس الأدب القديم ونقده بكلية الآداب بسوهاج – جامعة جنوب الوادي .

العـــراق ،وطبعوه أيضاً بطابعهم المذهبي الخاص؛ بحيث إن مصر لم تعرف منذ عهد الفراعنة والبطالمة بلاطاً يتميز بجدته وبذخه، كالبلاط الفاطمي(٦).

ولقـــد أصـــبحت القاهـــرة مصدر جذب للشعراء لما اشتهرت به في عهد الخلـــيفة المعـــز من ازدهار حضاري، ورفاهية وترف بلغ غايته في عصر خليفـــته العزيـــز بـــالله الـــذي كان محباً للأبهة وحياة الرفاهية، ميالاً لبناء القصـــور واقتناء الجوهر، وقد ابتدع نوعاً من العمائم المحلاة بخيوط الذهب وســـروجاً معطرة بالعنبر، واقتنى كثيراً من الطرف يزين بها موائده، وكانت أيامه بمصر أيام دعة ونعمة وواصل ابنه الحاكم بأمر الله سياسة أبيه وجده فـــي الـــتأنق، والحب للأبهة، فاستكثر من الخدم والجواري، وأحب الغناء، واحـــتفظ بالجواري المغنيات، وشغف بفخامة اللباس، فلبس الثياب الموشاة بالذهـــب، والعمـــائم المطـــرزة، واتخـــذ المراكب الفخمة، من الخيل، تكسى بأغشية من الوشي .

واســـتكثر من شراء الجوهر (٧) . فنهض الشعر في عهد المعز نهضة مـــباركة، بفضـــل ما كان يدره على الشعراء من هبات، فكانت قصوره كعبة العلماء والشعراء والمفكرين .

واســـتمر الخلفاء وحاشيتهم من بعده يغدقون عليهم من الهبات السخية، ويقـــررون لهم الرواتب من خزانة الدولة، كما كان يشرف على شئونهم في القصر "مقدم الشعراء"(٨).

ويحدثـــنا المقريـــزي فـــي كلامه عن بركة الحبش أنه كان بها طاقات، عليها صور شعراء، كل شاعر وبلده، وعلى جانب كل طاقة من هذه الطاقات قطعـــة مـــن القمـــاش كتب عليها أبيات من شعر الشاعر في المدح، وعلى الجانـــب الآخـــر رف لطيف مذهب، وأن الخليفة الآمر بأحكام الله دخل هناك وقـــرأ الأشـــعار ثم أمر أن توضع على كل رف صرة مختومة فيها خمسون ديناراً، وأن يأخذ كل شاعر صرته بيده(٩).

كمـــا كانت سيدات قصر الإمامة الفاطمية يغدقن الأموال على الشعراء كلما سمعن منهم شعراً جديداً في مدح الأئمة، ويحدثنا عمارة اليمني أنه بعد أن أنشـــد قصـــيدته الأولـــى في مصر، أخرجت له السيدة بنت الإمام الحافظ خمسمائة دينار(١٠).

وقد شارك وزراء مصر الفاطمية في جذب الشعراء إليهم ، فكان الأفضل يجلس بدار الملك التي أنشأها في مجلس العطايا ، وقد أمر بتفصيل ثمانية ظروف ديباج أطلس، من كل لون اثنان وجعل في سبعة منها خمسة وثلاثين ألف دينار في كل ظرف خمسة آلاف، فمن هذه الظروف كان يغدق في عطاياه على الشعراء الذين كانوا يقصدونه، ولعل أشعر وزراء الفاطمية وأكثرهم تودداً إلى الشعراء هو الوزير الملك الصالح "طلائع بن رزيك" ، فقد جمع شعره في مجلدين كبيرين ، وجمع شعر الشعراء فيه، فكان شيئاً كبيراً، ولكن هذه الأشعار كلها فقدت ، ولم يبق منها إلا شذرات، وكذلك كان الوزير الناصر العادل "رزيك بن الصالح" الذي وصفه عمارة اليمني بقوله: "وأما فهمه فكان يعرف جيد الشعر ويستحسنه ويثيب عليه فسوق الشعر قد ازدهرت في عهد الوزراء كما كانت مزدهرة في عهد الأئمة (١١).

هكذا نرى الفاطميين يولون الشعراء عنايتهم لأن الشعراء لسان من ألسن تمجيدهم والذود عنهم أمام أعداء كثيرين أقوياء ، كما اتخذهم الخلفاء والولاة أدوات للمباهاة بالسلطان ، وكان مثلهم في ذلك مثل ماتضم مجالسهم من ألوان الترف ، وما يجمعون من أسباب النعيم ، فالشعراء كانوا عند هؤلاء من ضروب الزينة والمتعة والمسامرة أو التسلية ، يبذلون لهم مايريدون كي يرضوا نزعاتهم ، ويشبعوا رغباتهم ، ويلبوا طلباتهم فيما تهديه إليه مخارقهم وشطحاتهم (١٢).

ولقد أطلق الفاطميون العنان لبذخهم وإسرافهم ولهوهم معتمدين على ثراء دولتهم ؛ ليظهروا لأعدائهم ماهم عليه من قوة وثراء فلا يجترئوا عليهم ، وكذلك ليلهوا رعيتهم من أهل السنة عن أمور السياسة والطعن في أحقيتهم في الخلافة ، فنثروا الأموال على العامة لجذب القلوب والأنظار ، وشارك الخليفة وكبار رجال الدولة بمواكبهم في كثير من هذه الاحتفالات فغرق الشعب في جو المرح واللهو ومختلف أصناف الطعام والشراب واستمتعوا بالمواكب الخلافية ومظاهر العظمة والجمال والمآدب الرسمية والحلوى والملابس الزاهية واللعب والتماثيل في الأسواق يعلنون عن أنفسهم بالطبل والزمر والرقص(١٣) .

كمـــا يـــبدو أن طبيعة الشعب المصري وحبه للحياة البهجة، واستمتاعه بنعيم الدنيا كان مشجعاً له على الإقبال على الاحتفال بالأعياد ومشاركته في اللهـــو بكـــل ما أوتي من طاقة ونشاط ، وإن بالغ أحياناً وشذ بعض الشذاذ والعـــوام، فأسرفوا على أنفسهم وارتكبوا بعض المفاسد وأظهروا المجون، وخـــرجوا علـــى التقاليد والحرمات، ولم يتقيدوا بما توجبه أوامر الدين مما اضطر الحكام ورجال الشرطة إلى التدخل لمنع هذه الانحرافات المخلة بالقيم الدينية والاجتماعية (١٤) .

والظاهـــرة الواضـــحة الدلالة في هذا العصر مشاركة المسلمين النصارى فـــي أعيادهم وعدم شعورهم بالحرج في ذلك، والاختلاط بهم نساء ورجالاً، دون وجود قيود أو حواجز تحجز بينهم، وكأنهم أبناء ملة واحدة.

وقد يعزو بعض المراقبين ذلك إلى خفة في دين المصريين ، أو إلى ما غير ذلـــك مـــن صفات تسوءهم. ويقول الدكتور/ محمد زغلول سلام: ليس الأمر كذلـــك، بل إن مرجع الأمر كله إلى شعور المصريين بالانتماء لمصر، وأنهم متســـاوون في هذا الوطن الذي أظلتهم سماؤه، وسقاهم نيله بمائه، فأحدث بيـــنهم مـــن الألفـــة وتماذج الأرواح ما غلب على شعور الفارق الديني بين المسلم والمسيحي.

كذلك الموروث الثقافي والحضاري لهذا الشعب العريق لعب دوراً كبيراً فـــي التغلـــب علـــى الحدود الدينية فأذاب تلك الحدود، وعاد المصري واحداً تتشابه ملامحه النفسية والاجتماعية مسلماً كان أو مسيحياً(١٥).

علـــى كل حال اتسع ثراء القاهرة واتسع معه ثراء أهلها اتساعاً شديداً حتى أنه يروي أن الخليفة المعز كان يقول: " أحب أن أرى النعم عند الناس ظاهـــرة وأرى عليهم الذهب والفضة والجوهر ولهم الخيل واللباس والضياع والعقار وأن يكون ذلك كله من عندي(١٦).

وهـــذا ســـاعد على المرح والانطلاق رغبة من الخلفاء في الترفيه عن الأهالـــي لكســـب مودتهـــم ، فأقـــاموا لهم المآدب وجاءوا عليهم بالمال في المناســـبات كالأعـــياد وغيرها مما كان يطرأ لحينه، كما ذكروا: أن الظـــاهر تصدق بمـــائة ألف دينار من أجل أنه سقط عن فرسه وسلم.

وقد كان شرب الخمر مباحاً لا إنكار عليه إلا في شهر رمضان ، فكثر شربها حتى شربها الناس أمام الخلفاء في المجامع العامة وشربها الخلفاء أنفسهم على تلك الحال (١٧).

وفي وصف القاضي الفاضل ليوم النيروز أيام الدولة الفاطمية دليل على تلك الإباحة المطلقة التي أفلت فيها المصريون من كل قيد وأطلقوا لطبعهم المرح والعنان حتى أتوا بما لا نكاد نسمع مثله اليوم عن أكثر الأمم إباحة، قال:

" كان يوم النيروز بمصر في الأيام الماضية من مواسم بطالاتهم ومواقيت ضلالاتهم ، فكانت المنكرات ظاهرة والفواحش صريحة في يوم يتجمع المؤنثون والفاسقات تحت قصر اللؤلؤة بحيث يشاهدهم الخليفة وبأيديهم الملاهي وترتفع الأصوات وتشرب الخمر، ويتراش الناس بالماء والخمر، وبالماء ممزوجاً بالأقذار. فإن غلط مستور وخرج من داره لقيه من يرشه ويفسد ثيابه ويستخف بحرمته فإما فدى نفسه وإما افتضح (١٨) .

والذي أعان على هذا اللهو والمرح كثرة المتنزهات التي أعدها الخلفاء حول القاهرة على النيل متصلة بالصحراء وأقاموا لأنفسهم فيها مناظر لتكون مجالسهم أيام الفيضان وهو موسم الفرح والطرب على ظهر النيل في السفن المعدة لذلك .

ولقد قام الشعراء بالتفنن في وصف أماكن التنزه و المظاهر والمباهج وزينة الحياة ومسراتها وكذلك ألوان المتعة . وهذا ما سوف نوضحه فيما يأتي :

أماكن التنزه

من الطبيعي أن تشيع بعض فنون اللهو في القاهرة [العصر الفاطمي] بعامل ما كان هناك من ثراء وترف وتحضر وما كان من تشجيع الخلفاء وكبار رجال الدولة الذين عمت مظاهر الترف في عهدهم جميع الناس .

واللهو والمرح يحتاجان إلى أماكن للتنزه وقد حبا الله مصر بنيلها العظيم، وعاش أهلها وشعراؤها على ضفافه وفي وديانه ورياضه، ينعمون بمياهه المتدفقة العذبة وبما ينشيء من غروس وزروع وثمار وأزهار، وهو

يجري نافثاً لعابه من حوض إلى حوض، باثاً الحياة والجمال في كل ما يمسه، مما جعل العرب يلقبون مصر حين فتحوها بأنها فردوس الدنيا، وقد وصفها القرآن الكريم بأنها جنات وعيون وزروع ومقام كريم .

وفي كل مكان نعم الشعراء بهذه الجنات يسرِّحون الطرف فيها والخيال، فتتكون لديهم حاسة الجمال، ويتعمقهم الشعور بما خصَّ الله ديارهم من هذا النعيم الذي يقصر أي وصف عن تصويره . وطبيعي أن يتردد ذكر النيل على ألسنة الشعراء وذكر مشاهد رياضه الفاتنة وقواربه وسفنه الشراعية.

ولقد أحس تميم بن المعز لدين الله الفاطمي بالمتعة وهو يرصد حركات النيل وسكناته وربط لذة المتعة بالنيل والنظر إلى أمواجه الراقصة بلذة النظر إلى النساء الراقصات وهن يتمايلن بمعاطفهن . . . يقول تميم :

نظرتُ إلى النيل في مده بموج يزيدُ ولا ينقصُ
كأن معاطف أمواجه معاطف جارية ترقص(١٩)

وفي أيام المسرة سرعان ما يمر الوقت وبخاصة عند قضاء رحلة نيلية على سفن شراعية – فوق أمواج مياهها منحدرة – تشبه الخيول المسرعة، والجدير بالملاحظة إحساس المتعة في شعر تميم فيشبه موج النيل بجسد المرأة العارية ومايجتذب مرأى الرجل فيه من متعة حس، فالموج المتكسر عكن والدارات سُرَر. يقول:(٢٠)

يومٌ لنا بالنيل مختصر ولكل يوم مسَّرةٍ قِصرُ
والسفنُ تصعد كالخيول بنا في مَوْجهِ والمَاءُ ، ينحدرُ
فكأنَّما أمواجُه عُكَنٌ وكأنَّما داراتُه سُرَرُ

وما أجمل وصف تميم لرحلة نيلية بالقرب من مدينة حلوان ، فمركبه الذي يمخر عباب النيل بشراعه يشبه الفرس الأدهم، كما أن لون طلاء القارب والأمواج ملتطمة به كأنه زنجية تزينت بالأكاليل، وشمس الضحى بأشعتها المنعكسة على صفحة النيل تجعلها تشبه السيف المسلول اللامع. وأمواجه

الناتجة من مداعبة ريح الصبا لصفحة النيل عرضاً وطولا جعلت من ينظر إليه يتخيله درعاً مطروحة على الأرض. أو ثياباً مرصعة بالجواهر . . . . . يقول: (٢١)

يا حبّذا حُلْوَانُ فالنيلُ رَبْعٌ بحُسْن اللهو مَاهُولُ
رُحْتُ ومركوبي به أدهمٌ على جَناح الريح محمولُ
كأنه في الماءِ زنجية لها من الموج أكاليلُ
والنيلُ في رَوْنَق شمس الضحا سيفٌ صقيلُ المتن مسلولُ
حتى إذا مادَرَجَتْه(٢٢)الصَّبا وماج منه العرضُ والطولُ
فهو لمن أبصره جَوْشَنٌ(٢٣) على مِهادِ الأرض مسدول
أو حُبُكٌ تَرصِيعُها جَوْهَرٌ مُبَدّدٌ فيهنّ محلولُ

أما " ابن قلاقس " فراح يصور لنا وقت الأصيل، والشمس أوشكت على الغروب، وبعد غيابها ظهر من خلفها شعاع أحمر جعل الناظر يتخيل أن الشمس احترقت بمغيبها والشفق من خلفها نار هذا الحريق ، كما أن الهلال زورق جاء لينقذ الشمس من الغرق والحريق، يقول:

انظر إلى الشمس فوق النيل غاربة واعجب لما بعدها من حمرة الشفق
غامت وأبدت شعاعاً منه يخلفها كأنما احترقت في الماء بالغرق
وللهلال وقد وافى لينقذها في إثرها زورق قد صيغ من ورق(٢٤)

وصورة النيل وقت الأصيل تلفت نظر الشاعر إليها، فيرى مياه النيل بلونها الفضي متوشحة ثياب الأصيل تشبه برادة ذهب نثرت على مبرد . يقول:

وللنيل تحت ثياب الأصيل لجين توشح بالعسجد
يحاكي إذا دَرَجَتْه الصبا برادة تبر على مبرد(٢٥)

ويذكر أبو الرقعمق النيل وأغصان الشجر، وهديل الحمام على الأغصان، كما يذكر هفواته على شواطئه مع ملوك وسادة وهو في ذروة المجد من أهل شيبان يقول:

لـــيالى النـــيل لا أنســـاك مـــا هتفت ورق الحمـــام علـــى دوح وأغصـــان
أصـــبو إلـــى هفوات فيك لي سلفت قطعتهـــن وعيـــن الدهـــر ترعانـــي
مـــع ســـادة مجـــد عـــز غطارفـــة في ذروة المجد من أهلابن شيباني(٢٦)

ويصـــف "ابـــن الســـاعاتي" رحلـــة نيلية ظن أنه قد ملأ يومه فيها باللهو والمـــرح متخـــيلاً ســـفينته إنسان عين وماء النهر مقلته والمجاديف تشبه رموش العين ، يقول :

ولمـــا توســـطنا علـــى النـــيل غدوة ظننـــت وقلـــت الـــيوم جـــذلان
عشـــارية إنســـاناً له المـــاء مقلـــة ولـــيس لها إلا المجاديف أجفاناً(٢٧)

والنـــيل فـــي أيـــام الاحتفالات والمناسبات والأعياد يظهر في أجمل وأبهى مـــنظر، ووصـــف الشـــعراء مظاهـــر الاحـــتفال بوفاء النيل، وكسر الخليج والمهرجان. ففي يوم المهرجان واحتفال الوزير الأفضل بن بدر الجمالي قال الشـــاعر "أمية بن أبي الصلت" شعراً أرسله إلى الوزير واصفاً النيل وبهاءه عندما أوقدت على شواطئه الشموع، فتلألأت أضواؤها على مياهه التي بدت ســـماء تـــناثرت فوقهـــا الشهب، وتحولت مياه النيل الفضية إلى مياه ذهبية بسبب هذه النيران. يقول:

أبدعْـــتَ للـــنَّاس مـــنظراً عَجَـــباً لازلْـــتَ تُحيـــي السُّـــرورَ والطَّـــربَا
جمعْـــتَ بيـــنَ الضـــدّين مُقْـــتَدِراً فمـــن رأى المـــاءَ خـــالط اللّهَـــبا
كأنَّمـــا النِّـــيلُ والشّـــمُوعُ بـــهِ أقْـــقٌ ســـمَاءٍ تألّقـــتْ شُـــهُبَا
قـــد كـــانَ مـــن فـــضّـــةٍ فصـــيَّرَهُ توقد النَّـــار فوقـــهُ ذَهَـــباً(٢٩)

وقال ابن سعيد يصف موضع النيل وشاطيء الفسطاط وجزيرة الروضة:

نزلـــنا مـــن الفســـطاط أرفـــع منزل بحيـــث امـــتداد النـــيل قد دار كالعقد
وقـــد جمعـــت فـــيه المراكب سُحرةً كســـرب قطا أضحَى يَرِفُ على ورْدِ
وأصـــبح يَطغـــى الموج فيه ويرتمي ويطفـــو حـــناناً وهـــو يلعب بالنّرد
غـــدا مـــاؤه كالـــريق ممـــن أحـــبه فمـــدت علـــيه حلـــية من حلية الخدّ
وقـــد كـــان مثل الزهر من قبل مده فأصـــبح لمـــا زادهُ المد كالورد(٣٠)

وقال تميم في وصف النيل:

أمـا تـرى الـرعد بكـى فاشـتكى والـبرق قـد أومـض فاستضـحكا
فاشـرب علـى غـيم كصبغ الدجى أضـحك وجـه الأرض لمـا بكـى
وقـد حكـى العـود أنيـن الهـوى لكـنه جـود فـيما حكـى
وانظـر لمـاء النـيل فـي مـده كأنمـا صـندل أو مسـكاً
وهاكهـا تشـبه فكـر الـذي نظمهـا فـي لفظـه أو حكـى(٣١)

وقال تميم يصف النيل عند زيادته:

انظـر إلـى النـيل قد عبا عساكره مـن المـياه فجـاءت وهي تستبق
كـأن خلجانـه والمـاء يأخذهـا مدائـن فتحـت فاحـتازها الغـرق
كـأن تـياره ملـك – رأى ظفـراً فكـرّ إثـر الأعـادي – محنق نزق
كـأن مـاء سـواقيه لـناظرها شـهب الخـيول إذا ماحـثّها العَنَق
فاشـرب مُغـنّى فـإن اللهو منبسطٌ واطـرب مُهنّا فهذا منظر أنِق (٣٢)

ومـن المتـنزهات التي كانت بمصر "البرك" التي كانت تشتهر بجمالها الأخاذ، وأصبحت في ذلك الوقت محط أنظار الشعراء والأدباء وعشاق اللهو والطـرب، وهذه البرك تكونت من اندفاع الخلجان، كما أقيمت عليها القصور والبساتين والحدائق والمتنزهات وكذلك المناظر، ومنها بركة الفيل "وهي من متـنزهات مصـر، تقـع في أرض الطبالة وكان من عادة سلاطين مصر أن يركبوا إليها بالليل، وحولها المناظر المسرجة التي تكون منظراً عجيباً"(٣٣) ومـنها أيضـاً "بركة الحبش" وتقع جنوب مدينة مصر فيما بين النيل وجبل المقطم كانت تطلق على حوض من الأراضي الزراعية التي يغمرها ماء النيل وقت فيضانه السنوي وكانت تشمل من الأرض مساحة قدرها مائة وخمسون فداناً(٣٤).

وابن "سعيد المغربي" عندما شاهد بركة الفيل تخيلها وهي مستديرة كالعين والمناظر المقامة من حولها تشبه أهداب البصر، كما يدعونا إلى النظر إليها والاستمتاع بمنظرها فهي قمر محاط بالكواكب. يقول:

انظـر إلـى بركة الفيل التي اكتنفت بهـا المـناظر كـالأهداب بالبصـر

فكأنمـــا هـــي والأبصـــار تـــرمقها كواكـــب قد أداروها على القمر(٣٥)

ويدعونا أيضاً إلى النظر إليها في الغدو عند طلوع الشمس على صفحتها، فـيظل الطـرف مجـنوناً بجمالها وبهجتها مشغوفاً بحبها ومنظرها البديع ، يقول:

انظـر إلـى بركة الفيل التي نحرت لهـا الغـزالة نحـراً مـن مطالعها
وظـل طـرفك مجـنوناً ببهجـتها تهـيم وجـداً وحباً في بدائعها(٣٦)

أما " بركة الحبش " فهي من متنزهات مصر وخاصة في العصر الفاطمي ، حيـث كانـت - كمـا ذكرنا - محط أنظار الشعراء والأدباء وعشاق اللهو والطـرب ، فالأمير تميم كان يملك قصراً وبساتين تطل عليها(٣٧)، وجرت عادته أن يجتمع بأصحابه في تلك الرياض ويختلط بعامة الناس ويقدم إليهم الطعـام والشـراب على سبيل الهدية وقد عبر عن حبه لهذه المنطقة في أشـعاره. فدعـا إلى تأمل هذه البركة والشمس ترسل أشعتها على صفحتها وهـي ممتلـئة بالمـاء تغامزها وتغازلها ، كما أن الريح تراقص موج هذه الـبركة مرة في هدوء وأخرى في عنف وشدة، والنبات والأزهار تحيط بها من كل جهة كأنها بسط سندسية في غاية الجمال والروعة ، يقول :

انظـر إلـى الـبركة الغـناء مفعمة بالمـاء والشمس من حسن تغامزها
والـريح تلعـب فـي أمواجها جذلاً فمـا تسـالمها إلا تـبارزها
والنبـت قـد حفهـا مـن كل ناحيةٍ بكـل غصـن أنـيق فهـو حائزها
كأنهـا بسـط بـيض إذا بـرزت للعيـن مخضرة منها فراوزها (٣٨)

كما أنه عندما نظر إلى هذه البركة وهي مفعمة بالماء الذي تحرك صفحته الرياح فيموج، وضوْء الضحى ينعكس عليها فتلمع وتبرق كأنها مرآة صانع مصـقولة والخليج مقبضها، والقمر يتمثل فيها؛ فيجعله يرى قمراً يحدوه أي يتـبعه فـي الطلـوع؛ وهذا القمر الذي يتصور فيها ليس له فيها بروج ثم يدعوا إلى اللهو والمرح ، يقول:

كـأن الـبركة الغـنّاء إذا مـا غـدَتْ بالمـاء مفعمـةً تمـوجُ

وقـــد لاح الضُـــحى مـــرآة قيْـــن قـــد انصـــقلت ومقبضـــها الخلـــيجُ
تُـــرى قمـــرَ الدّجـــى قمـــراً حـــدَاه طلوعـــاً مالـــه فـــيها بُـــروج
فـــلا تَعْـــص الصِّـــبا شـــي لُبْس لهْو فـــإنّ الدهـــر ذو شَـــغَبٍ لجـــوجُ(٣٩)

ولـــم يـــنس تميم زهر النيلوفر المحيط بهذه البركة، ونسيمه الجميل الذي يشـــبه نشر الحبيب، يتأمله وهو متفتح الأجفان نهاراً وفي الليل وبعد مغيب الشـــمس يطـــبق جفنيه على خده ويغوص في ماء البركة خوفاً من الرقيب، يقول:

وبـــــركة تـــــزهو بنـــــيلوفر نســـيمه يشـــبه نشـــرَ الحبيـــب
مفـــتح الأجفـــان فـــي نومـــه حـــتى إذا الشـــمس دنـــت للمغيـــب
أطـــبق جفنـــيه علـــى خـــدّه وغاص في البركة خوف الرقيب(٤٠)

وعندما زار "أبو الصلت أمية" "بركة الحبش" في صحبة من الرفاق وجدها ثرية بالمباهج فصورها لنا بقوله:

" فافترشـــنا مـــن زهرها أحسن بساط، واستظللنا من دوحها بأوفى رواق، وطلعـــت علينـــا مـــن زجاجات الأقداح شموس في خلع البدور، ونجوم في الصـــفاء تـــدور، إلـــى أن جرى ذهب الأصيل على لجين الماء، ونشبت نار الشفق بفحمة الظلماء، فقال في ذلك بعضنا:

لله يومـــــي بـــــبركة الحـــــبش والأفـــق بيـــن الضـــياء والغـــبش
والنـــيل تحـــت الـــرياح مضـــطرب كصـــارم فـــي يميـــن مـــرتعش
وقـــد نســـجتها يـــد الربـــيع لـــنا فنحـــن مـــن نســـجها علـــى فرش
ونحـــن فـــي روضـــة مفوفـــة دبـــج بالـــنور عطفهـــا ووشـــى
فعاطنـــي الـــراح إن تاركهـــا مـــن ســـورة الهم غير منتعش(٤١)

ويقـــول ابـــن سعيد: " وعاينت من هذه البركة أيام فيض النيل عليها أبهج مـــنظر. ثـــم زرتها أيام غاض معظم الماء. وبقيت فيها بين خضر من القرط والكتان تفتن الناظر، وفيها أقول:

يـــا بـــركة الحـــبش التي يومي بها طـــول الـــزمان مـــبارك وســـعيد
حـــتى كـــأنك فـــي البســـيطة جـــنة وكـــان دهـــري كلـــه بـــك عـــيد
يـــا حســـنَ مـــا يبدو بكَ الكتانُ في نـــــــواره أو زرّة معقـــــــود
والمـــاء مـــنك ســـيوفه مســـلولة والقـــرط فـــيك رواقـــه ممـــدودُ
وكـــأن أبـــراجاً علـــيك عـــرائسٌ جلبـــتْ وطـــيرك حولهـــا غـــرِّيدُ
يـــا ليـــت شـــعري هل زمانك عائدٌ فالشـــوق فـــيه مُـــبدءٌ ومعيدُ (٤٢)

كمـــا أن الشاعر المصري " ظافر الحداد " يقف أمام النيل متأملاً طول هذا النـــيل ومن خلفه " بركة الحبش " التي تجمعت في باطنها المياه ، وأحاطت بهـــا الخضـــرة، وبعـــد النظر والتأمل الدقيق يتخيل البركة عمامة احتضنتها الخضرة والتحفت ثوباً مقوراً، يقول:

تأملـــت نهـــر النـــيل طـــولاً وخلفه مـــن الـــبركة الغـــناء شـــكل مقدر
فكـــان وقـــد لاحـــت بشطيه خضرة وكانـــت وفـــيها المـــاء بـــاق موفر
عمامـــة شـــرد في جواشن خضرة أضـــيفت إلـــيها طيلسان مقور(٤٣)

ويوجـــد بجوار " بركة الحبش " مكان يسمى " بالرصد " وهو مكان مرتفع مـــن الجهـــة الشرقية بها ، وعرف بالرصد لأن أمير الجيوش "بدر الجمالي" أقـــام فوقه كرة لرصد الكواكب ، وهو مكان يذهب إليه الناس للتنزه واللهو لمـــا اشتهر بنقاء هوائه وطيبه ، يقضون الليل فيه وهم في مرح وسرور ، وقد ذكره بعض الشعراء في قوله :

يالـــيلة عـــاش ســـروري بهـــا ومـــات مـــن يحســـدنا بـــالكمد
وبـــت بالمعشـــوق فـــي المشـــتهى وبـــات مـــن يرقبـــنا بالرصد (٤٤)

وقد وصف أمية بن عبدالعزيز الرصد بأنه مكان جميل يقصده الناس للنزهة، وقـــد جمـــع كل شيء جميل فإن نظرت منه إلى الوادي لرأيت غديراً جميلاً وروضاً ناضراً وكذلك الجبل وملاح السفينه وحادي الإبل يقول:

يانـــزهة الرصـــد المصري قد جمعت مـــن كل شيء حلا في جانب الوادي

فـــذا غديـــر وذا روض وذا جـــبل فالضب والنون والملاح والحادي(٤٥)

ومـــن الأماكـــن التـــي يتمتع بها أهل مصر "الخلجان" وهي من صنع النيل وكان الخلفاء والوزراء في مصر أيام الفاطميين يحتفلون بيوم كسر الخليج . قـــال المقريـــزي(٤٦) " يجلـــس الخليفة في خيمته الكبيرة غربي النيل قرب قـــنطرة الســـكرة ويتقدم إليه أحد رجاله ويسمى النائب فيقدم الشعراء حسب مـــنازلهم ، فـــالواحد يـــتقدم الواحـــد بخطـــوة في الإنشاد .وفي إحدى تلك المناسبات تقدم شاعر يقال له ابن جبير وأنشد :

فُـــتح الخلـــيج فســـال مـــنه المـــاءُ وعلـــتْ علـــيه الـــرَّايةُ البيضـــاءُ
وصـــفت مـــواردُهُ لـــنا فكأنَّـــه كـــفّ الإمـــام قَعَـــرْفُها إعطـــاءُ

فانـــتقد الناس عليه في قوله: " فسال منه الماء"، وقالوا: أي شيء يخرج من البحر غير الماء ؟ فضيَّع ما قاله بعد هذا المطلع.

وتقدم شاعر يقال له مسعود الدولة بن جرير ، وأنشد :

مـــازالَ هـــذا الســـدُّ يـــنظرُ فـــتحُهُ إذنَ الخلـــيفة بالـــتَّوالِ المرسَـــلِ
حـــتَّى إذا بـــرزَ الإمـــام بوجهـــهِ وســـطاً علـــيه كـــلّ حـــامِلِ مِعْـــولِ
فجـــرى كـــأن قـــد دِيـــفَ فيه عنبرٌ يعلـــوه كـــافورٌ بطيـــب المـــنْدَلِ

فانـــتقدوا علـــيه أيضـــاً قولـــه في البيت الثاني ، وقالوا أهلك وجه الإمام بسطوات المعاول عليه ، وإن كان يقصد فتح السد بالمعاول، لكن نظْمه كان قلقـــاً . ثم تقدم شاعر شاهد يقال له " كافي الدولة أبو العباس أحمد " وأنشد قصيدة شهد له جماعة منهم القاضي الأثير ابن سنان ، فإنه عملها بحضوره بديهاً :

لمـــن اجـــتماعُ الناس في ذا المشهد للنـــيل أم لـــك يابـــن بنـــتِ مُحمـــدِ
أم لاجـــتماعكما معـــاً فـــي موطـــن وافيـــتُما فـــيه لأصـــدقَ موعِـــدِ
لـــيس اجـــتماعُ الخلـــق إلا للـــذي حـــاز الفضـــيلة مـــنكما فـــي المولدِ
شـــكروا لكـــل مـــنكما لوفائـــه بالسَّـــعي لكَـــن مـــيلهم للأجـــودِ
ولئـــن إذا اعـــتمد الوفـــاءُ فقـــبلهُ بالقَصـــد لـــيسَ له كمـــن لـــم يقصدِ

هـذا يَفـي ويعـودُ يـنقص تـارةً وتَسـدُّ أنـت الـنقصَ إن لـم يزْدَدِ
وقـواهُ إن بلـغَ الـنِّهاية قصَّـرتْ وإذا بلغْـتَ إلـى الـنِّهايةِ تبْـتَدِى
فـالآنَ قـدْ ضـاقتْ مسـالكُ سَعْيِهِ بالسـدِّ فهـوَ بـه بحـالِ مُقـيَّدِ
فـإذا أردْتَ صَـلاحَهُ فافـتَح لهُ لـيرَى جـنباً مُخْصِـباً ويرَى نَدِى
وا أمـرْ بفصـدِ العِرْق منه فمَا شكَا جسـم فصّـح الجسـمُ إنْ لم يُقْصَدِ
واسـلَمْ إلـى أمـثال يومِـك هكـذا فـي عـيش مغـبُوطٍ وعـزٍّ مُخلَدِ

فأمر له على الفور بخمسين ديناراً ، وخلع عليه ، وزيـد بجارية "(٤٧).

مـن هـذه الـرواية يتضح لنا أن رجال الدولة في العصر الفاطمي كانوا يشـاركون الشعب في احتفالاتهم ، ويستمعون إلى الشعراء وكذلك يستمعون لانـتقاد الـناس لقول الشعراء ، ويأمرون بالجائزة للشاعر الذي نال شعره إعجـاب الناس . ويتمتع الناس بهذه الاحتفالات ويقضون يوماً أو أياماً في لهو ومرح ، وينالون خير الحكام من مال وطعام ومنح وغير ذلك .

وعندما تهدأ مياه الخليج يراه "الأسعد بن مماتي" مصقولاً كالسيف كما أن المِلاح اللائي يجدن السباحة يسبحن فيه ويغصن كالنجوم في المجرة، يقول:

خلـيج كالحسـام له صـقال ولكـن فـيه للرائـي مسـرة
رأيـت بـه المـلاح تجـيد عومـاً كأنهـن نجـوم فـي المجرة (٤٨)

أمـا " أبو الصلت " فقد شاهد الخليج وقال عنه : " دخلت في الخليج الذي بيـن القاهـرة ومصـر ، ومعظـم عمار به فيما يلي القاهرة ، ورأيت فيه العجائـب ، وربمـا وقـع فـيه القتل بسبب السكر ، وهو ضيق، عليه من الجهتين بالليل منظرتان " (٤٩).

ويقول : أبو الصلت ناصحاً من يريد التنزه في الخليج:

لا تركبـن فـي خلـيج مصـر إلا إذا أسـدل الظـلام
فقـد علمـت الـذي عليـه مـن عـالم كلهـم طغـام
يـا سـيدي لا تسـر إلـيه إلا إذا هـوم الظـلام
والليـل سـتر علـى التصـابي عليـه مـن فضـله لـثام (٥٠)

أمـــا " عمـــارة اليمنـــي " وهو شاعر كبير سياسي كانت حياته مزيجاً من النعـــيم والشقاء ، ولد عام (٥١٥ هـــ) ومات عام (٥٣٩ هـــ) ،قال شعراً ذكـــر فـــيه مكارم الفاطميين وأيام لهوهم واحتفالاتهم ذاكراً منها يوم موسم كسر الخليج ، يقول:

دار القـــيان كانـــت أنـــس وافدكـــم والـــيوم أوحـــش من رسم على طلل
وفطـــرة للصـــوم إن أصفت مكارمكم نشـــكو مـــن الدهر حيناً غير محتمل
وموســـم كـــان في كسر الخليج لكم تأتـــي تحملكم فيه على الحمل(٥١)

ومـــن منازه الفاطميين "المناظر" وهي من أجمل ما شيد في عصرهم وهي عديـــدة أقاموهـــا علـــى الخلـــيج وعلى النيل وفي بعض القصور الزاهرة، والمناظر جمع منظرة وهي قصر جميل شاهق أعد لجلوس الخليفة وحاشيته ليرى ما حوله من البساتين أو ليشرف منها على الخليج أيام زيادة النيل .

فكانـــت لهـــم مـــنظرة عند الجامع الأزهر يجلس فيها الخليفة في ليالي مشـــهورة تســـمى ليالي الوقود ، فكانوا ينصبون التنانير العظيمة والقناديل يوقـــد بهـــا الشـــموع في الفناء تحت المنظرة حيث يجتمع القاضي والوزير والأمراء وسائر الناس على طبقاتهم ، ويقدم لهم الطعام والحلوى والفاكهة، ويغـــدق الخـــير علـــى أهل المدينة وتوقد كافة المساجد بالقاهرة والفسطاط ويطل الخليفة من المنظرة ويستمع المواعظ والشعراء .

وكـــان علـــى الخليج منظرة تسمى " اللؤلؤة مكانها الآن مسجد الأستاذ الشـــعراني يجلـــس بها الخليفة أيام النيل فيشرف على البستان الكافوري ثم يرى النيل وما على شاطئيه من القرى.

وكـــان علـــى الخلـــيج مـــنظرة تسمى "الغزالة" مكانها الآن ملتقى شارع الموســـكي بشـــارع الخليج المصري ، وهي الآن جامع ابن المغربي، وهناك منظرة تسمى السكرة على الخليج المصري ، وهي الآن جامع ابن المغربي، وهـــناك منظرة تسمى السكرة على الخليج أيضاً ولكن في مبدئه وهي خلف الســـبع ســـقايات عـــند فم الخليج كان يجلس بها الخليفة يوم الاحتفال بفتح الخليج، وموضع هذه المنظرة كما حقق علي مبارك منزل أحمد باشا كمال ، وكـــان لهم منظرة تسمى " الدكة " فكان الخليفة إذا خرج من منظرة السكرة

بعد فتح الخليج سار بموكبه الحافل في الجانب الغربي من الخليج وعن يمينه وعن يساره مضارب الناس وزينتهم وخيام الأمراء والجميع يحتفلون بوفاء النيل إلى أن يصل إلى قنطرة الدكة فيستريح بها قليلاً ويسقى فرسه من مائها ، وقنطرة الدكة المعروفة الآن كانت مجاورة لتلك المنظرة(٥٢) .

ومن أماكن التنزه ومواطن اللهو والفرحة واللذة في زمن الفاطميين كانت "الأديرة"، ومعظمها تطل على النيل، ويقصدها الناس للتنزه حيث مجالس الطرب والغناء والرقص والشراب، من تلك الأديرة "دير مهنا" بالجيزة(٥٣)، "ودير طرا" القريب من بركة الحبش الذي كان" لايخلو من قصب وشرب(٥٤)، "وديـر شهران" وكان به قصر للخليفة الحاكم يقيم فيه عند خروجه للتنزهة والصيد(٥٥) .

ومن أشهر تلك الأديرة ،" دير القصير" في أعلى جبل المقطم ، وإلى الشرق من بركة الحبش مطلاً على الصحراء والنيل ، وتحيط به البساتين والحدائق الزاهرة، وكان هذا الدير من منازه الفسطاط والقاهرة المقصودة للمتعة واللهو، كما أن رهبان هذا الدير كانوا يرحبون بالزائرين وبخاصة في أعياد النصارى حيث يكون القصف والشراب والغناء ، وكان الشعراء يعجبون به، ويقضون أوقاتاً سعيدة يتناشدون الشعر فأبدعوا في وصف جماله ومجالسه الصاخبة ،ولهذا الدير مكانة لدي خلفاء الفاطميين ، يؤمونه في أوقات نزههم ، كما كان يتردد عليه الحاكم بأمر الله في زهده لقضاء أرقات بين رهبانه(٥٦) .

وكان إلى جوار بركة الحبش أيضاً دير " مرحنا " – قرب فم الخليج الآن – على شاطىء البركة من الجهة الغربية ، وإلى جانبه بساتين للأمير تميم ، وقد جعل بها مجلساً له على عمد .

وتميم بن المعز الشاعر الفاطمي المحب للهو والمرح والمجون كثيراً مازار هذه الأديرة، وقضى فيها أوقاتاً جميلة ، ففي "دير مرحنا" الذي يدعو له بالسقيا ونزول المطر، قد زاره فقامت الأوانس بتقديم الخمر له ولمن معه، وهن جميلات رقيقات إذا ابتسمن أنرن ما حولهن كضوء الضحى، كما أن حمرة خدودهن تشبه حمرة الورد، وهن رشيقات ممشوقات القوام .

ولقد أمضى في هذا الدير ليالي مملوءة بالصبابة واللهو متمتعاً بشبابه ، يقول :

أيا دَيْرَ مَرْحَنَّا سقتكَ رُعود ... من الغيثِ تهمي مرّةً وتعودُ
فكم واصلتنا في رُبَاك أوانِسٌ ... يَطُفْنَ علينا بالمدامة غِيدُ
وكم ناب عن نَوْر الضحى فيك مَبْسِم ... ونابت عن الوَرْد الجنِيّ خدودٌ
وماسَتْ على الكثبان قضبانٌ فضة ... وأثقلتها من حملهنَّ نهُودُ
ليالِيَ أغدو بين ثوبَيْ صبابةٍ ... ولهو وأيّام الزمان هُجُود
وإذ لِمتي لم يوقظ الشيبُ ليلها ... وإذْ أثرى في الغانيات حميدُ(٥٧)

أما " دير القصير " فقد زاره تميم كثيراً وقضى فيه ليالي كثيرة كلها لهو ومرح ، وما أجمل ليالي " دير القصير " فساحاته مضيئه مشرقة كأنها نهار، يشعر الجميع في هذا المكان باللذة والتصابي ، فمن يزره يتجدد نشاطه وحيويته، فمن كان محبوساً على حب لذة فإن تميماً قد حبس لذته في دير القصير، يقول :

أرى الليلَ في دير القصير كأنما ... تطالعنا من ساحتيه شموس
يلذّ التصابي في ذراه كأنما ... ثجَدَّد للزوّار فيه نفوس
فمن كان محبوساً على حبّ لذّة ... فإني على دير القصير حبيسُ(٥٨)

ثم يتساءل هل " دير القصير " هو سبب طربي وسعادتي وراحة بالي ؟ وتساؤله هذا على طريقة الشعراء القدامى في مخاطبتهم للإثنين " خليلي " ، فهو كلما زار هذا الدير وجد ارتياحاً شديداً ، وقضى وقتاً جميلاً فوق رباه متمتعاً بنسيمه العليل . . . . يقول :

خليليّ هل دير القُصَير مُحَرِّكي ... على الطَّرَب المحْتَثّ(٥٩) والخلق السَّهْل
فإنّي أراني كلّما زُرْت أرضَهُ ... وجدت ارتياحي فيه مُجْتَمع الشَّمْل
رُباً كلّما هَزَّ النسيمُ مثُونها ... أقامتْ بريّاها التّصابي على رجْل(٦٠)

وأصبح مجونه ولهوه قاصراً على هذا الدير ، يبذل ماله بسخاء وكأن ما ينفقه في الخمر واللهو دين عليه لابد من قضائه، ولذا دقت نواقيس هذا

الديـر فـي السبكور سـارع هو في شرب الخمر لأن دينه يخالف دين هذه النواقـيس ، ومضى يومه صريعاً بين لذة الخمر وسماع الموسيقى والتمتع بنظرات الحسان من حوله، ولكن هذه اللذات من سكر ولهو ومجون لم تهتك ستر مروءته ، كما أن الذنوب لم تفسد يقينه، يقول:

قصَـرْتُ علـى ديْـر القُصير مُجُوني ورُحـتُ ومالـي فـيه غـيرُ مَصُون
وكانَـتْ بـه للـرّاح عِـندِي وللصِّبا دُيـونٌ ، فلـم أمطـلْ قضـاءَ دُيُوني
إذا بكّـر الـناقوسُ باكـرْتُ شُـرْبَها وخـالفَ أديـانَ النَّواقِـيس دِينـي
ورحـتُ صَـريعاً بيـن كـأسِ مُدامةٍ وترجـيع أوتـار ولحـظِ عُـيون
ولـم تهـتِكِ اللـذّاتُ سِـترَ مُرُوءَتي ولا أفسَـدَتْ فـيه الذنوبُ يقيني(٦١)

وكثـيراً مـا كـان " تميم " يعمر هذا المكان " دير القصير " من أجل اللهو والتسـلية مبتعداً عن الأماكن التي تجلب الهم والحزن ، متعجباً ممن يهجر اللـذات ، قائلاً : إنه امرؤ منحوس، كما أن رُبَا هذا الدير نالت الإعجاب من النصـارى ، لذلـك فهـو ينزل فيها ليلاً من أجل الاستراحة واللهو ، ليتمتع بسـماع الموسـيقى غـير مهـتم بالنصارى لأنهم مشغولون بسماع دقات نواقيسـهم ، وعندما ينغمسون في عبادتهم ومناسكهم يستيقظ هو من لهوه راجعاً إلى دينه دين محمد (صلى الله عليه وسلم) مقدساً ربه تقديساً، يقول:

عَمـرتُ المغاني واجتنبت النواويسا(٦٢) وسـاعدتُ فـي الدير القصيريّ إبليسا
وهـل يهجـر اللـذاتِ إلا مسـوَّفٌ ويـتركها إلا امـرؤ بـات منحوسـاً
رُبـاً عظَّمتهـن النصـارى ولـم أزل أعـرّس(٦٣) بـاللذاتِ فيهـن تعريساً
أصـولُ بقـرع البـمّ والزيـر بعـده إذا قـرعوا عـند الصـلاة النواقيسـا
وإن عظَّمـت فـيه النصـارى صليبَهم وحرّكـتِ الـناقوس أو عـبدت عيسى
فزعـت إلـى ديـن النـبيّ محمـدٍ وقدسـت فـيه رب أحمد تقديساً(٦٤)

ولـم تكـن زيارته "لدير القصير" محددة بزمن معين، فكان يذهب إليه في الصـباح وفـي المسـاء؛ ليقضي أوقات لهوه ولعبه ومجونه مع محبوبته، يشـرب الخمـر صباحاً ومساءاً ، واصلاً ليله لاهياً ماجناً مستمعاً للموسيقى العذبة، يقول:

كـم بديـر القصـير لـي من بكور ورواح علـى الصّـبا والعُقـار
حيـث أخلـو بمـا أحب من القصـ ـف(٦٥) قليل الوقار لستُ أداري
كـم صـبوح شـددته بغـبوق(٦٦) وظـلام وصـلته بـنهار
إنمـا العـيشُ أن تـروحَ عشـيًّا قاصـفاً عازفـاً خلِـيع العذار(٦٧)

وأخـيراً فإن هذا المكان " دير القصير" ذو شرف عند الشاعر ، وقلبه دائم الحنين إليه ، وهو في نظره أعظم من الخورنق والسدير ، يقول :

إلـى ديـر القصـير صـبا فـؤادي وقـد يصـبوا الخطـير إلى الخطير
محـل جـلّ أن تُعْـزَى إلـيه محـلاَّتُ الخَوَرْنَـق والسَـدِير(٦٨)

ونظراً لأهمية هذا الدير كمكان جميل للتنزه ظل مرتاداً للشعراء حتى القرن السابع، ويذكر الشاعر علي بن ظافر في كتاب " بدائع البدائه " أنه ذهب إليه مـع بعض صحابته. قال(٦٩) " ومضيت أنا وجماعة من صحابتي إلى الدير المعـروف بالقصـير إيثاراً لنظر تلك الآثار ، فلما تنزهنا في حسن منظره، وقضينا الوطر من نظره تعاطينا القول فيه جرياً على عادة الخلعاء والبلغاء، وظرفاء الأدباء، ومجان الشعراء الذين نبذوا الوقار بالعراء " .

ومـن مـنازه الفسـطاط والقاهـرة [القرافة] بجبل المقطم بين الفسطاط والقاهرة ، وقد يعجب المرء أن تكون مدينة الأموات نزهة ومكاناً يأنس إليه الأحياء ، ولكن هكذا كان الحال وظل ، وللمصريين عادات غريبة تختلف عن غـيرهم ، ومـن هذه العادات الغريبة أنسهم للأموات ، واحتفالهم معهم في الأعياد يذهبون إليهم ، ويعتقدون مشاركتهم لهم فيها .

ومـن هـنا كانت القرافة مكاناً يجتمع فيه الناس للفرجة ، بدلاً من كونها قاصـرة علـى العبرة بالموت ، فالمصري يعتقد من قديم أن الموت مرحلة ينتقل بعدها الإنسان من طور إلى طور، ولايفنى، فهو باق في الحياة الآخرة يعمـل ماكـان يعمله في حياته الدنيا، وقد انتقلت هذه العقيدة إلى المصري المسـلم ، وجمـع بينها وبين ماجاء عن البعث في الإسلام وحياة القبر وما إلى ذلك(٧٠).

وذهب إليها ابن سعيد قال(٧١): "وبت ليالي كثيرة بقرافة الفسطاط ، وهي في شرقيها، بها منازل لأعيان الفسطاط والقاهرة، وقبور عليها مبانٍ معتنى بها، وفيها القبة العظيمة العالية المزخرفة التي فيها قبر الإمام الشافعي رحمة الله عليه. ولاتكاد تخلو من طرب ولاسيما في الليالي القمرية، وهي معظم مجتمعات أهل مصر وأشهر متنزهاتهم وفيها أقول:

إن القرافة قد حوت ضدين من ... دنيا وأخرى ، فهي نعم المنزلُ
يغشى الخليع بها السماعَ مواصلاً ... ويطوفُ حول قبورها المتبتّلُ
كم ليلة بتنا بها ومُدامُنا ... لحنٌ يكادُ يذوبُ منه الجندلُ
والبدرُ قد ملأ البسيطة نورُهُ ... فكأنما قد فاض فيها جَدْولُ
وبدا يضاحك أوجُها حاكيْنهُ ... لمَّا تكمَّل وجهُهُ المتهلّلُ

قال ابن سعيد: " وفوق القرافة في شرقيها جبل المقطم ، وليس له علوّ ولا فيه اخضرار، وإنما يقصد للبركة . وهو نبيه الذكر في الكتب، وفي سفحه مقابر أهل الفسطاط والقاهرة ".(٧٢)

وسكن القرافة أمية بن أبي الصلت العالم الشاعر الأديب القيرواني الذي وفد إلى مصر في عهد الخليفة المستعلى ووزيره الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي وظل بمصر زمناً.(٧٣)

مما سبق يتضح فيما جاء من شعر ابن سعيد وقوله عن القرافة ووصفها أنها كانت مكاناً للتنزه والطرب واللهو، يغشاها الخليع والندماء من مدمني شرب الخمر متمتعين بضوء القمر الذي ملأ نوره البسيطة.

وقال الأمير تميم يصف " القرافة " [ديوانه [٢٧،٢٨] .

إذا كنت مطفياً مربَعاً ... فخص "القرافة" بالإصطفاءِ
منازلُ معمورةٌ بالعفا ... فِ مخصوصةٌ بالتقى والبهاء
كأن العبير لها تُربةٌ ... تَضَوّع في صُبْحِها والمساءِ
ويُحيي النفوسَ بأرجائهنّ ... رقيقُ النسيم وطيبُ الغِناء
ديارٌ أدير بهن النعيمُ ... ومغنىً كمُلْتدّ رجع الغِناءِ
تزيدُ الشموسُ بها بهجةً ... وتحسُن في مُقْلتَيْ كلّ راءِ
ويُنْبيهُ فيها النّيامَ الأذان ... إذا مزّق الليلَ سيفُ الضّياء

فمـــن ذاكـــر ربَّـــه خَشْـــيَةً ومِـــنْ مســـتهلٌّ يطـــول الدّعـــاءِ
ولا خَـــيرةٌ فـــي حـــياة امـــريءٍ إذا لـــم يَخَـــفْ فَضْـــلَ يـــوم القضاء
رجوتُـــك يـــاربِّ لا أنّنـــي أطعـــتك طـــوْعَ أولـــي الانـــتهاء
ولكننـــي مؤمِـــنٌ مُوقِـــنٌ بـــأنّك ربُّ الـــورى والســـماءِ
وأنّـــك أهـــلٌ لحُسْـــن الظّـــنون وأنـــك أهـــلٌ لحســـن الـــرجاءِ
ومالـــيَ يـــاربّ مـــن شـــافع إلـــيك ســـوى خـــاتِمَ الأنبـــياء
وأنّـــي حَنِـــيفٌ بـــريءٌ إلـــيك مـــن الشـــك والشـــرك والإعـــتداءِ
فَصـــفْحَكَ عـــن زضـــلّتي مُـــنْعِماً وعفـــوَك عـــن نبوتـــي والتوائـــي

ومن منازه القاهرة "قرية الخلقانية" حيث كان من عادة الخلفاء الفاطميين الخـروج إلـيها للنزهة – وهي في ضواحي قليوب – وذلك لأن تلك القرية تنتشر بها حدائق الزهور، وهذه القرية من ممتلكات الفاطميين الخاصة وتمد القصـر بحاجـته مـن الزهور التي تستخدم في الموائد والحمامات وخزانة الكسـوة(٧٤) وغـيرها، وكـان يجري بتلك القرية في موسم كثرة الزهور احـتفالٌ كبـيّر يحضره الخليفة بنفسه، فيعمل بتلك المناسبة قصرا فخما كله مـن الورد على هيئة متناسقة من الفن والجمال، ويقضى الخليفة يومه في الـنزهة في ضواحي القرية ثم يشاهد القصر، وخلال ذلك تجري الاحتفالات بتقديم فنون الغناء والطرب والتسلية بحضرة الخليفة.(٧٥)

ومـن أماكـن التـنزه فـي العصر الفاطمي ط جزيرة الروضة "، ويقول المقريـزي: تطلق الروضة في زماننا على الجزيرة التي بين مصر والجيزة، وعرفت في أول الإسلام بالجزيرة وجزيرة مصر ، وعرفت الروضة منذ زمن الأفضل بن بدر الجمالي ٤٩٠هـ ، وكانت متنزهاً ملكياً وسكناً للناس إلى أن أنشـأ بهـا نجـم الدين الأيوبي ٦٣٧هـ قلعة الروضة وأسكنها مماليكه . وهدمهـا عـز الدين أيبك عندما أراد تعمير المدرسة المنصورية ثم عمرها بيبرس وأسكنها مماليكه(٧٦).

وهـي متـنزه جميل أذهب أحزان المغتربين ، وملأ نفوس الناظرين بهجة وسـروراً، يتحدث عنها أبو الصلت فيقول: وقد تفرجت كثيراً في طرق هذه الجزيرة، فقطعت بها عشيات مذهّبات لا تزال لأحزان الغربة مُذهِبات، وكنت

أبيت بعض الليالي "في الفسطاط" على ساحلها فيزيدهن ضحك البدر في وجه النيل، وركبت مرة في النيل أيام الزيادة، وصعدنا إلى جهة الصعيد، ثم انحدرنا واستقبلنا الجزيرة وأبراجها تتلألأ، والنيل قد انقسم عنها فقلت:

تأمل لحسن الصالحية إذ بدت مناظرها مثل النجوم تلالأ
وللقلعة الغراء كالبدر طالعاً يفرج صدر الماء عنه هلالاً
وعانقها من فرط شوق لحسنها فمد يميناً نحوها وشمالاً(٧٧)

وقال ابن سعيد يصف موضع النيل وشاطيء الفسطاط وجزيرة الروضة:

نزلنا من الفسطاط أرفع منزل بحيث امتداد النيل قد دار كالعقد
وقد جمعت فيه المراكب سُحرةً كسرب قطا أضحىَ يَرِفُّ على وِرْدِ
وأصبح يطغى الموج فيه ويرتمي ويطفو حناناً وهو يلعب بالنَرِدِ
غدا ماؤه كالريق ممن أحبه فمدت عليه حليةُ من حلي الخدِّ
وقد كان مثل الزهر من قبل مده فأصبح لما زاده المدُّ كالورد

قال : قلت هذا لأني لم أذق في الحياة أحلى من مائه ، وأنه يكون قبل المدّ الذي يزيد به ، فيفيض على أقطاره أبيض ، فإذا جاء عباب النيل صار أحمر(٧٨).

والشاعر " ظافر الحداد " يدعونا إلى النظر إلى هذه الجزيرة وأن تستمع إلى بدائع وصفه وتشبيهه فيها ، حيث يتجمع فيها البحر ثم يفترق فتكون أشبه بالسراويل، وتحرك الرياح صفحة النيل فتطويه أحياناً وتنشره نسيم هذه الروضة. يقول:

انظر إلى الروضة الغراء والنيل واسمع بدائع تشبيهي وتمثيلي
وانظر إلى البحر مجموعا ومفترقاً هناك أشبه شيء بالسراويل
والريح تطويه أحياناً وتنشره نسيماً بين تغريد وتعديل(٧٩)

ومن أماكن التنزه في القاهرة _ العصر الفاطمي وحتى عصرنا الحاضر _ "الرياض" و "البساتين والزهور" التي تسبب في وجودها وفرة المياه وخصوبة التربة واعتدال الجو، فانتشرت الخضرة في كل مكان وكثرت

الحدائق والبساتين، وهذا جعل الشعراء يسجلون افتتانهم وحبهم لهذه الرياض وتلك البساتين . فيصف تميم بن المعز روضة ناضرة خضراء يانعة جاد عليها الغمام بمائه فأصبحت في كامل نموها وازدهارها ، محفوفة بالباقلاء الندية الشهية المجتنى . . . . يقول :

وروضَةٍ أنفٍ جاد الغمام لها بدمعهِ فكساها حُلَّة الترَفِ
يحفها باقلاءٌ نبتُها خَضلٌ شهيَّةُ المُجْتَنَى معشُوقة الهيفِ
تحكي قدود العذارى البيض جاذبها أرادفُها فانثنت من شدة الصلف

وكان يذهب إليها مبكراً للتنزه وبرفقته ندماؤه الذين تحلوا بالأدب وحسن الحديث، كأن ألفاظهم تحف، غريبة الحسن أو أحلى من التحف ، يقول :

باكرتها بندامى كلهم فهم تراضعوا درَّة الآداب والطرفِ
كأن ألفاظهم ما بينهم تحفٌ غريبةُ الحسن أو أحلى من التحف(٨٠)

وهذه الرياض يقصِّر عنها كل وصف ، وتشتهيها النفوس لما فيها من ورد وسوسن وبهار، كما تجلب السعد لكل من يحل بها، وترى فيها النرجس عندما تحركه الرياح فيتمايل ناشراً رائحته الذكية كالعذارى السكارى يتعانقن بوجوههن المضيئة، وأغصانه خضراء تشبه الزمرد حاملة أزهارا ككؤس الفضة، يقول:

نحن في روضة يقصِّر عنها كلُّ وصفٍ وتشتهيها النفوسُ
بين وردٍ وسوسَنٍ وبَهارٍ وسعودٍ قد جانبتها النحوسُ
وترى النرجسِ الذكيَّ إذا ما حرّكته الرياح وهو بميسُ
كعذارى تخالهنّ سُكارى يتعانقن والوجوه شموسُ
قضب من زُمُرّدٍ حاملاتٌ فضة فوقها اللُجَين كؤوس

ويحلو في هذه الرياض التنزه وشرب كؤوس الخمر المعتقة التي لونها كلون خدود الآنسات الناعمات ، كما أن ريحها كريح عنبر الشحر ، يقول :

ولنا قهوة كلون خدودٍ ناعماتٍ قد شقهنّ العبوس
ريحها ريح عنبر الشحر(٨١) لما أحتمتها وعتقتها المجوسُ (٨٢)

وهي رياض حسنة موشاة بالورود الجميلة ، كما أن يد السحاب قد نمقتها وجعلت أرضها كالبسط المنسوجة بخيوط مختلفة الألوان منها الأصفر والأخضر، تفتقت فيها أكمام النرجس ، فبرزت ولم تنظر ، وانتشرت شقائق النعمان تنثر حمرتها في ربوع الروضة وقد أسفرت عن وجهها تلوح فخورة بجمالها حيناً، وتستحي حيناًآخر ، ثم يدعونا إلى التنزه فيها والتمتع بشرب الخمر وسط أريج هذه الروضة التي بجمالها وهدوئها تريح فؤاد كل مفكر ، يقول :

انظر لتفويف(٨٣) الرياض وحسنها قد نمَّقتْهُ يَدُ السّحاب الممطر
بُسُطٌ تُخالفَ صبغُها ونسِيجُها مابين أصفر كالعقيق وأخضر
يجمعن حسن المنظر الزاهي الذي راقَ العيونَ إلى كريم المخبر
فكأنّ نرجِسها عيونٌ أبرزت أجفانها لكنها لم تنظر
وشقائق كست الرُّبا من نسجِها حُلَلاً كتضْريح(٨٤) الخدود الأحمر
مُنَّبرِّجات ناعمات أكملت خَفَر الذليل ونخوة المتكبر
وغلائل زُرْقٍ نشِرن كأنها آثار تجميش(٨٥)الصدور النُضَّر
مابين مَوْرٍ قد بدا كمراودٍ من عَسْجَد مملوءة من سُكّر
فاشربْ على تلك الرياض ونشرها رَاحا تُريح فؤاد كُلِّ مفكّر(٨٦)

وقال ارتجالاً وكان جالساً على نهر في روضة:

إن خريرَ الماءِ بين الرياضْ وبينَ ألحاظِ العيون المِراضْ
نزْهةُ من قد رَقَّ تأديبُه فردْ على نهلةِ تلك الحِياضْ
والثم على الراح خدودَ الدُّمىَ حتَّىَ تراها زُرْقةً في بياضْ(٨٧)

واستمر الشعراء في وصف هذه الرياض ووصف أزهارها الزاهية ، ونسيمها العليل ومياهها الرقراقة ، فالشاعر " ناصر الدين الحسن بن شاور " يصف لنا روضة من رياض القاهرة يداعب أغصانها النسيم ، يقول :

وروضة توسوس الغصن بها لما هزا فيها النسيم الشمأل
قد جن في أرجائها جدولها فهو على وجه الثرى مسلسل(٨٨)

أما الحدائق والبساتين وماتحتويه من زهور فقد كانت مكاناً جميلاً للتنزه ، واهتم حكام العصر الفاطمي بانشاء هذه البساتين والعناية بها ، كما أن الشعراء في العصر الفاطمي أعجبوا بجمالها واستراحوا بالجلوس فيها ، وكان الشعراء يذهبون إليها مع ندمائهم للنزهة ، فتميم بن المعز يقول عن رحلة له في جماعة من الندماء قاصداً بستاناً له :

نحن من البستان في نزهةٍ ولفظنا مثل خُلاه سَوا
تذاكَرَ يُطفي غليل الجوى كأدمُع المشتاق يوم النَّوى(٨٩)

وما أجمل أن تزور بستاناً من أجل التنزه في يوم جوه جميل ؛ سماؤه ملبدة بغيوم تنذر بنزول المطر الذي يجعل النسيم بارداً عليلاً يشبه امتصاص شفتي حبيب وقت السحر، يقول تميم :

أما ترى حركات الريح مُخْبِرةً أنّ الغمام يَصُوبُ الأرضَ بالمطر
فالجو ملتحِف بُسْطا مفوَّفة كأنهن اختلافُ الوشي والحبَر
كأنّ بردَ نسيم الغيْم حين بدا برد ارتشافِ حبيبٍ زار في السَّحَر

ويحلو اللهو وشرب الخمر ، وسماع الموسيقى في هذا الجو المنشرح ، ويجب أن تغتنم هذه الفرصة وتتمتع وتلهو لأن الليالي غير باقية ، يقول تميم :

فأجرفيه كؤوس اللّهو دائرةً بين ارتجاع حنين الناي والوتر
واعلم بأنّ الليالي غيرُ باقيةٍ فلا تُبقِّ على لهو ولا تَذَر(٩٠)

والمعاني السابقة يكررها تميم في قوله :

قد اجتمع البستان والروض والخمر وحُرِّكت الأوتارُ وارتفع الزَّمْرُ
فمالك لا تغدو إلى الراح غدْوة يبيحكَ فيها كلّ ماتشتهي السكر
هل العيش إلا قينةٌ ومدامة وساقٍ مليح ليس يُعصى له أمر
فبادر بقايا العمر مادمت قادراً وماجرّ أرسانَ الحياة لك العمر
بفتيان صِدق من نداماك سادةٍ إذا ماانتشوا لم يجر بينهُم هُجْر
كرام ظِراف لايُعَلّ حديثهمْ ولايستريبهمْ في مجالسهم كبر(٩١)

مظاهر اللهو والتسلية:

إن اتساع ثراء القاهرة - في العصر الفاطمي - واتساع ثراء أهلها اتسعت معه الرفاهية التي أدت إلى اللهو والمرح والانطلاق ، وأخذت حياة اللهو والمرح مكاناً بارزاً في الأدب الفاطمي وبخاصة الشعر ، ووصف لنا شعراء العصر الفاطمي جوانب من مظاهر اللهو والطرب ووسائل التسلية التي كان يتمرغ فيها طلابها في ذلك الوقت ومن هذه المظاهر :

أولاً: الغناء والموسيقى والرقص:

انتشر الغناء والطرب في عصر الدولة الفاطمية بين كافة طبقات المجتمع المصري ولعل هذا الذيوع راجع إلى تشجيع الخلفاء ورجال الدولة على هذا الاتجاه، فلم يكن يخلو مجلس من مجالسهم الخاصة ومآدبهم المتعددة واحتفالاتهم بالأعياد من سماع الغناء والموسيقى ومشاهدة فنون الرقص والألعاب المسلية. (٩٢)

وقد عبر شعراء العصر الفاطمي في أشعارهم عن الكثير من مظاهر الحياة الفنية وخاصة ما يتعلق بالغناء والطرب ووصف الآلات الموسيقية والراقصات .

ولقد وصف لنا الشاعر السكندري ابن قلاقس (٩٣) المغني عندما يمسك بعوده ويصلح من نغمات أوتاره فيخرج منها ألحاناً عذبة تبعث الفرحة والنشوة في قلوب المستمعين، يقول :

مغن تناولت يده العود فعادت بنا الأفراح
جس أوتاره فأصلح منا صالحا صار في يد الإصلاح(٩٤)

وانظر إلى قول تميم الذي تناول نفس المعنى في وصفه للمغني وعُوده عندما تجس أنامله أوتار العود برفق وخفة لتتفق نغماتها مع غنائه كما يجس الطبيب عرق العليل ، ثم نسمع بعد ذلك لحناً مع غناء يبعث فينا السرور ويزيل عنا ما نحن فيه من هم وكرب ، يقول :

لقد نطق العود عن سره فغادر كل صحيح كئيب
فشبهت ميل معاصيره إذا مِلْنَ بعد استواء وطيب
بوجه حبيب بدا ضاحكاً فعنَّ له لحظ عين الرقيب

فلمـــا اســـتوى نطـــقُ أوتـــاره حكـــى نقـــرُها حســـن لفـــظ الحبيب
تجـــسُّ الأنـــامـلُ دســـتانه كمـــا جَـــسّ عـــرق العلـــيل الطبيب
فيُســـمِعنا حـــركاتِ الســـرور ويَكْشِـــف عـــنَّا بـــنات الكروب(٩٥)

ويصـــف تمـــيم بن المعز عود الغناء مبيناً أن فصاحة العود تفوق فصاحة لسانه ، وأن حسن بيانه يفوق كل بيان ، فعندما يصلح المغنى أوتاره يشدها بالملاوي(٩٦) تتجاوب نغمات الأوتار مع ألفاظ الغناء فتخرج عذبة جميلة ، كـــل ذلـــك في مجلس لهو يتبادل فيه الندماء كؤوس الخمر مستمعين لغناء المغنيات الجميلات ، فيذهب حزنهم وتزول همومهم ، يقول :

لســـان العـــود أفصـــح مـــن لساني وحُســـنُ بـــيانهِ فـــوقَ البـــيَان
إذا شـــدَّتْ مثالـــثه المـــلاوي وجاوبَـــت الـــبُمُومَ بـــه المثانـــي
ودارت أكـــؤسُ الصّـــهْباءِ صِـــرْفا وحُرِّكـــتِ الغوانِـــي للأغانـــي
فـــيالك مـــن مُـــنادمَةٍ وقصْـــفٍ تـــزول بهـــا مُلِمَّـــاتُ الـــزَّمان(٩٧)

وقال أيضاً عن العود :

شـــكا العُـــودُ بالأوتار شجوا فأطربا وتَـــرْجَمَ عـــن معنى الضمير فأعْرَبَا
فلـــم أرَ شَـــاكٍ مـــثله بـــثَّ شـــجوَه فأفـــرح محـــزوناً وفـــكَّ مُعَذَّباً(٩٨)

وكـــان الشـــعراء يوجهون النقد إلى أهل الغناء والموسيقى إذا كانوا غير متقنيـــن لصناعتهم، أو دخل في هذا الفن من ليس من أهله، فانظر إلى قول بـــن قلاقس يذم مغنياً إيقاع نغماته لا يتفق مع نبرات صوته "فهذا يزيد وذا يـــنقص"، والزامر مثل المغني نفسه قصير، وإن همَّ بالرقص فالجميع يسرع هارباً إلى بيته، يقول:

يـــنافر إيقاعـــه صـــوته فهـــذا يـــزيد وذا يـــنقص
ويتـــبعه زامـــر مـــثله تبـــيع لـــه نَقْـــسٌ أو قـــص
فـــإن قـــام مـــا بينـــنا راقصـــاً فكـــل إلـــى بيـــته يـــرقص(٩٩)

كما أن الشاعر تميم يبين لنا أن الحياة بدون اللهو والصبا لا قيمة لها وأن اللهو بدون سماع الموسيقى والغناء مع شرب الخمر لا يعد لهواً، يقول:

خليليّ لا عيشٌ سوى اللهو والصِّبا ولا لهوَ إلاّ في سماع وفي خمر(١٠٠)

ونظـراً لأن الدهر لا يدوم على حاله فعش حياتك وشبابك واشرب كؤوس الخمر فإن من سمات الدهر التنقل والغدر "ولا تنتظر كرَّ البياض على الشعر" يقول:

فحـثّا كـؤوس الـرّاح صِرْفاً فإنني أرى الدهـر صَـعْبا لا يَدُومُ على أمر
إذا الدهـرُ أعطـاك القـيادَ فلا تثق بـــه فقصـــاراه التـــنقل للغـــدر
فـأعطِ مـن العـيش الشباب نصيبه ولا تنتظرْ كَرَّ البياض على الشعر(١٠١)

ويقـول أيضـاً داعـياً إلى اللهو واللعب وسماع الموسيقى والإنهماك في الغي:

إنمـا العـيش أن تـروح عَشِـيًّا قاصِـفاً عازفـاً خليع العذار(١٠٢)

ووصـف الشعراء إتقان الراقصات وخفة حركتهن، لدرجة أنهن لو رقصن فوق الماء " ما بل أخمصها حبات الماء " ، يقول محمد بن هاني (١٠٣) :

ولطـيفة فـي الـرقص يعطف قدها كعطـــف اليزنـــية السـمراء
تخـتص بالحـركات مـنها سـرعة كتخصـــص الأرواح بالأعضـــاء
خفـت فلـو رقصـت بـأعلى لجة مـا بل أخمصها حَبَات الماء(١٠٤)

وأمـية بن أبي الصلت من مظاهر لهوه الدعوة إلى الطرب والانغماس في اللذات وشرب الخمر حتى ترطب الفؤاد وتبعد عنه الحزن والهم ، يقول :

علـل فـؤادك بـاللذات والطَّـرب وباكـر الـراح بالنايات والنخب(١٠٥)

هكـذا عـبر الشـعراء بشـعرهم عن مظهر من مظاهر اللهو مثل الغناء والموسـيقى والرقص، كما أن مِن الشعراء مَنْ كان يجمع بين موهبة قرض الشعر وإتقان العزف على الآلات الموسيقية والغناء ، ومن أمثلة من اشتهر فـي هذا المجال الشاعر المصري قمر الدولة بن داوس الذي وصفه صاحب الخـريدة بأنـه " صاحب نوادر و مضاحك، يلعب ويطرب ، ويشعر ويكتب ،

ويغنـــي بالعود ويضرب، إن لعب بالشطرنج فاق، أو بالنرد راق ، أو ضرب بالبربط انشرح القلب الذي ضاق(١٠٦).

ومـــن أشـــهر آلات الموســـيقى فـــي ذلك العصر والتي ورد ذكرها في الأخبار العود والمزمار، والطنبور، والصنوج ، والدف(١٠٧).

وقـــد جذب انتشار الموسيقي والغناء في هذا العصر المؤرخ المشهور عز الملك المسبحي (ت٤٠٢هـ/١٠٢٩م) إلي تأليف كتاب في هذا الفن بعنوان "مختار الأغاني ومعانيها". (المرجع السابق، ص ٧٤) .

ثانياً : الاحتفال بالأعياد:

كثرت أعياد مصر الفاطمية (١٠٨) وكثر فيها اللهو والعبث مع البذخ الشـــديد والتأنق في كل شيء، وهي أعياد مختلفة المصادر متعددة النزعات تجمعـــت من جهات بعيدة أو قريبة ، فبعضها يرجع إلى العصور الفرعونية كالاحتفالات بوفاء النيل، وبعضها عرفته مصر من خلال احتكاكها بغيرها من الشـــعوب كعـــيد النيروز الذي أخذته عن الفرس وأمدتها المسيحية بأعيادها كعـــيد رأس العام وعيد الغطاس ، كما أمدها الإسلام بعيدي الفطر والأضحى، واستحدثت الشيعة في مصر أعياداً خاصة كيوم عاشوراء.(١٠٩)

وقـــد شاهد الكهيني الرحالة بعض هذه الأعياد المصرية ؛ وشاركه الأمير تمـــيم فـــيها ، فوصـــفها بقوله: " ما رأيت أجمل من أيام النوروز والغطاس والمـــيلاد والمهـــرجان وعـــيد الشعانين وغير ذلك من أيام اللهو التي كانوا يســـخون فيها بأموالهم رغبة في القصف والعزف ، ذلك أنه لا يبقى صغير ولا كبـــير إلا خـــرج إلـــى بركة الحبش متنزهاً، فيضربون عليها المضارب الجليلة، والسرادقات والقباب والشراعات، ويخرجون بالأهل والولد ، ومنهم مـــن يخـــرج بالقيـــنات المسمعات، المماليك والمحررات، فيأكلون ويشربون ويســـمعون ويـــتفكهون وينعمون، فإذا جاء الليل أمر الأمير تميم بن المعز مائتي فارس من عبيده بالعسس عليهم في كل ليلة إلى أن يقضوا من اللهو والـــنزهة إربهـــم وينصرفوا، فيسكرون وينامون كما ينام الإنسان في بيته ، ولا يضـــيع لأحد منهم ما قيمته حبة واحدة، ويركب الأمير تميم في عشاريّ ويتـــبعه أربعـــة زواريق مملوءة فاكهة وطعاماً ومشروباً ، فإن كانت الليالي

المقمـــرة ، وإلا كـــان معـــه من الشموع ما يعيد الليل نهاراً ، فإذا مر على طائفة واستحسن من غنائهم صوتاً أمرهم بإعادته ، وسألهم عما عز عليهم فـــيأمر لهـــم بـــه، ويأمر لمن يغني لهم ، وينتقل منهم إلى غيرهم بمثل هذا الفعـــل عامة ليله، ثم ينصرف إلى قصوره وبساتينه التي على هذه البركة ، فلا يزال على هذه الحال حتى تنقضي هذه الأيام ويتفرق الناس(١١٠).

وأصـــبحت هـــذه الأعـــياد مظهراً من مظاهر لهوهم ومرحهم ووسيلة من وسائل التسلية وقضاء وقت من أوقاتهم الجميلة ، كما كانت مهرجاناً شعرياً تلهج فيه ألسنة الشعراء بوصف اليوم ومديح السلطان ،وتوزع فيه الجوائز والمنح والعطايا على المجيدين والمبدعين .

فالشاعر الشريف العقيلي(١١١) أنشد الخليفة المستنصر الفاطمي صبيحة يوم عرفة ٤٤٨هـــ أبياتاً ماجنة مستلهماً شعائر هذا العـــيد ، قال فيها :

قُـــمْ فانحَـــر الراحَ يوم النَّحْر بالماءِ ولا تُضَـــحِّ ضُـــحيّ إلا بصَـــهْباءِ
أدرك حَجـــيج الـــنَّدامى قـــبل نَفْرهم إلـــى مِـــنى قصْـــفِهم مَعْ كلِّ هيفاء
وعـــج علـــى مكـــة الروحاء مبتكراً فَطـــف بهـــا حول ركن العود والناء

فخـــرج المستنصـــر في ساعته بروايا الخمر تُزْجي بنغمات حُداة الملاهي وتساق ، حتى أناخ بعين شمس (بجوار القاهرة) في كبكبة من الفسَّاق فأقام بهـــا ســـوق الفسوق على ساق، يقول المقريزي: "وفي ذلك العام أخذه الله وأخذ أهل مصر بالسنين"(١١٢)

أمـــا تميم بن المعز فإنه يصف يوم العيد ويبين ما فيه من مظاهر البهجة والفـــرحة، والخير الكثير ثم يمدح بعد ذلك الخليفة ويهنئه بقدوم هذا العيد، يقول مهنئاً الخليفة العزيز بعيد الأضحى ومادحاً إياه:

ولمـــا رأيـــتُ الـــنّاسَ سَـــنُّوا التَّهانيَا بعثـــتُ بـــه مـــنّى إلـــيكَ القوافـــيَا
إذا هُـــنِّيء الأمْـــلاكُ بالعـــيدِ لـــم نَقُلْ عَـــداً لـــك هـــذا الدهـــرُ بالسّـــعد هانـــيا
ولكـــن نهـــنّى عـــيدنا بـــك والـــورى كمـــا بـــك هَـــنّانا الـــنَّدَى والمعَالـــيا
فلـــو لـــم تكـــن فـــي الأرض بلا سنَا وأشـــبَهَتِ الأيّـــامُ فـــيها الليالـــيا
إذا مـــا امـــرؤ ســـامى بجَـــدٍّ ووالـــدٍ سَـــمَوْتَ بـــأخلاق جَمَعْـــن المعالـــيا
ولـــو لـــم تكن من معشر فيهم الهُدَى لكنـــتَ هُـــدًى للـــناس وحـــدَكَ باقـــياً

كـــأنّك مـــاءُ الغَيْـــثِ يســـتَنْبت الـــرُبَا وَيكْسُو الثَّرَى حُسْنًا ويُرْوى الصَّواديا(١١٣)

وفـــي شهر رمضان يتبادل الناس الزيارات ، والشعراء يزفون التهنئة إلى كـــبار الشخصـــيات فـــي الدولـــة ، فتميم يهنىء الخليفة العزيز بالله بشهر رمضان ، يقول :

ليهَـــنْك أنّ الصـــومَ فـــرضٌ مؤكَـــدٌ مـــن الله مفـــروضٌ علـــى كل مسلم
وأنَّـــك مفـــروضُ المحـــبّة مِـــثله عليـــنا بحـــقٍّ قلْـــتُ لا بالـــتّوهّم
فَهُنِّئْـــتَ يـــا مَـــنْ بـــه الله قـــايلٌ مـــن الخلْـــق فـــيه كـــلَّ نُسْكٍ مقدَّم
ولا زلت منصوراً على فَرْض صَوْمِهِ ومعتصـــماً بـــالله مـــن كـــلّ مَحْرَم
فأنْـــت نَصـــرتَ العـــدلَ ثـــم نشرتَه وجُزْت ببذْل العُرْف حدَّ التكرم(١١٤)

و" ظافر الحداد " يزف التهنئة إلى قاضي الإسكندرية الأفضل ابن مكين الله بن حديد بمناسبة قدوم شهر رمضان ، يقول :

شـــهر الصـــيام بـــك المهـــيَّا إذ كـــان يشـــبه مـــنك فـــنا
مـــا ســـار حـــولاً كـــاملاً إلا ليســـرق مـــنك معـــنى
فـــإذا مدحـــناك احـــتقر نـــا مـــا نقـــولُ وإن أجدنـــا(١١٥)

وربمـــا عكـــس لـــنا الشـــعراء إيثارهم المتعة واللذة على احترام العادات الدينية. وقد تجلى ذلك في موقف الشاعر تميم عندما يقول في قصيدة يمدح بها الخليفة العزيز بالله ويهنئه بعيد الفطر:

هـــل بعـــد طـــيّ العُمْـــر إلا الـــبِلَى وهـــل وراءَ الشـــيب إلا الـــبَوارْ
عصـــر شـــباب المـــرء ضـــيفٌ له يمضـــي وأيـــام النّصـــابي قِصـــار
فخـــذ مـــن اللـــذّة مـــن قـــبل أن يـــنأى بلذّاتـــك بُعْـــدُ المـــزَار(١١٦)

وبعد ذلك يقول مهنئاً :

هَـــنَاك عِـــيد لـــك تمَّـــت له فيـــنا معانـــي لفظِـــه واســـتنار
جمَّلـــته عِـــزّاً وحســـنا كمـــا جمَّلـــتِ الشمسُ رداءَ النهار(١١٧)

والشاعر قمر الدولة أبو طاهر جعفر بن داوس المصري جعل التهنئة في نظره يوم إنسلاخ الشهر والعودة إلى التمتع بالطعام والشراب ، وذلك عندما حضر مجلس مؤتمر الدولة بن صدفة والناس يهنئونه بشهر رمضان ، يقول:

لا أهنّيك بالصِّيام لأني ... واثق بالهناء يوم العيد
بل أهنيء بالأكل والشُّرب والزَّقن وصوت الغنا وجس العود
لا بصوم يجفف الكبد حتى ... يجعل العود وهو مثل العود(١١٨)

ومن أعياد مصر الدينية عيد الغطاس ، وهو من أعياد النصارى يشاركهم فيه الشاعر تميم بن المعز لدين الله الفاطمي بأسلوب ساخر فهو يدعهم يقيمون شعائر ذلك اليوم ليمضي إلى ملذاته ويستبدل بالغطاس في الماء الغطاس في " باطية " عامرة بالشراب(١١٩)، يقول :

خَلِّ من يأتمّ بالصلـ ... ـبان يغدو اختلاطِ
واغدُ للصَباءِ نُسقا ... ها ونَسْقِي ونُعَاطي
غطسوا في الماءِ جهلاً ... وغطسنا في البواطي
وشربناها عقاراً ... خندريساً بنشاط(١٢٠)

أما عيد النيروز فقد أخذه المصريون عن الفرس، وظل هذا العيد بين المصريين حتى كانت الدولة الفاطمية، ومن مظاهر هذا العيد رش الماء وإيقاد النيران في السكك، وذكر المقريزي عن ابن زولاق أنه في سنة أربع وستين وثلاثمائة وفي يوم النيروز زاد اللعب بالماء ووقود النيران ، وطاف أهل الأسواق وعملوا فيلة، وخرجوا إلى القاهرة بلعبهم، ولعبوا ثلاثة أيام وأظهروا السماجات في الأسواق ثم أمر المعز بالكف ، وأن لا توقد نار ، ولا يصب ماء وأخِذَ قوم فحبسوا ، وأخذ قوم فطيف بهم على الجمال(١٢١).

وقد استمرت الحال على الاعتدال بالاحتفال بهذا العيد ، ولم يخرج العوام بعد عقوبة المعز للخارجين والمبالغين ، إلا أننا نلاحظ بعد ذلك عودة الظاهرة من جديد ، فنرى " القاضي الفاضل " يقول : " في سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة ":" وجرى الأمر في النيروز على العادة من رش الماء ،

واستجد فيه هذا العام التراجم بالبيض والتصافح بالإنطاع وانقطع الناس عن التصرف ، ومن ظفر به في الطريق رش بمياه نجسة "(١٢٢).

ويبين لنا تميم بن المعز بعد تهنئة " الخليفة العزيز بالله " بعيد النيروز ومدحه وبيان كرمه مظاهر هذا العيد كركوب المراجيح ورش الماء المشوب بالخمر والمسك مستخدمين أدوات للرش مثل الزرّافة والقنان ، ومياه النيل تلمع وتتلألأ بضوء القمر ، فتصبح صفحة النيل لامعة براقة " كسيف صقيل يمان "، يقول :

ليهنك يا مِلءَ عين الزّمان ... دوامُ السّرور ونيلُ الأماني
وأنك أنت الإمامُ الذي ... أبان له الفضلَ نصُّ القُران
ولمّا تبدّت مراجيحُنا ... تحرّكها بالغوالي الغواني
ونحن من الماءِ في وابلٍ ... مَشُوبٍ بخمرٍ ومسكٍ وبان
فمِن مُعْمِلٍ رَش زرّافةً ... ومن قاذِفٍ بسُلاف القِنان
وقد مدَّ في النيل بدرُ الدُّجَى ... صفيحة سَيْفٍ صَقِيلٍ يَمان(١٢٣)

وأعياد الفاطميين كثيرة ، وقد أشار (عمارة اليمني) إلى كثرتها في قصيدة رثى بها دولة الفواطم _ فقال :

أبكي على ما تراءت من مكارمكم ... حال الزمان عليها وهي لم تحل
دار الضِّيافة كانت أنس وافدكم ... واليوم أوحش من رسم ومن طلل
وفطرة الصوم إذ أضحت مكارمكم ... تشكو من الدهر صيفاً غير محتمل
وكسوة الناس في الفصلين قد درست ... ورثّ منها جديد عندهم وبلى
وموسم كان في يوم الخليج لكم ... يأتي تجمُّلكم فيه على الجمل
وأول العام والعيدين كم لكم ... فيهن من وَبْل جود ليس بالوشل
والأرض تهتز في يوم الغدير كما ... يهتز ما بين قصركم من الأسَل
والخيل تعرض في وَشْي وفي شية ... مثل العرائس في حلى وفي حلل(١٢٤)

ثالثاً : وصف الخمر ومجالسها:

من الطبيعي في هذه الحياة المترفة التي كانت تعيشها القاهرة في العصر الفاطمي واتساع ثراء أهلها من أن ينتشر شرب الخمر في مجالسهم ، وشرب الخمر – في تصوري – كان مباحاً ، لأن الخليفة العزيز كان يحتسي الخمر بصحبة الجواري الحسناوات والراقصات المبدعات ويقضي معهن أوقاتاً مرحة ، ويشاركهن العزف والغناء(١٢٥).

فالخليفة يحتسي الخمر وكذلك كبار رجال الدولة ، وكان عامة الشعب شغوفين بسماع الغناء والطرب والإقبال على الشراب في مجالس الأنس والبهجة ، وقد عبر الشعراء عن الصورة التي تبدو عليها مجالس الخمر ، فتميم بن المعز يوضح لنا ما دار بينه وبين خمار عند زيارته له ليلاً مصطحباً فتاة جميلة تشبه الظبي يقول :

زُرْنا به منزل خمارةٍ والليلُ في صِبغ بريَّاه
وقد علا الأفق هلالٌ بدا كعَطْفة الحاجب مَحْناه
حتى إذا الخمّارُ أصغت إلى صِحابنا في المشي أذْناه
قام إلينا عجلاً شاغلاً بالرَّاح يمناه ويسراه
فاستل من إبريقه قهوةً أشرق منها ليلُ مَغْناه
حتى إذا سُمْناه في بيعها قطَّب غيظاً حين سُمْناه
وقال : ما استام بها ماجدٌ قبلكمُ فيما علِمناه
دونكَمُوها وزِنُوا مثلها دُرّا وتِبْراً ، ووزناه (١٢٦)

وهي خمر معتقة قد لاح من الكاسات نورها ساطعاً كالشمس، يقول الشاعر "النجيب أبو المكارم":

محجوبة في الدَّنّ قد كانت الأُلى قديما أعدَّتها لصرف همومها
يلوح من الكاسات ساطع نُورها كشمس تبدت من فتوق غيومها
ولست ترى إلا شعاعاً وإنما يدل عليها نَغْمة من نسيمها(١٢٨)

وتميم عندما يصف جمال محبوبته لا يجد سوى الخمر يتمتر بها ، فلون الخمر مقتبس من لون وجنتها ، ولولا أن الخمر تشبه مقلتها ما أسكرت، يقول :

أعارتِ الراحَ لونَ وجنتها وطبْعَ ألحاظها ومعناها
فالخمرُ لو لم تكن كمقلتها في الطبْع ما أسكرتْ ندامَاها

إلى أن يقول :

سقتني الراح وهي خدّاها بأكؤس اللّحظ وهي عيْناها(١٢٩)

ويقول في موضع آخر :

كأنها لونُ وجنتيه وطيبُ ألفاظِه العِذابِ(١٣٠)

وانظر إلى مطلع قصيدة " لتميم " يمدح فيها الإمام العزيز بالله وهو مطلع من مطالعه الخمرية يصف فيها الخمر ولونها ، وما تحدثه فيهم بعد شربها من سرور ولهو وطرب . . . . ، يقول :

وزُجّيّة الآباء كَرْخيّة الجَلَب عَبيريّة الأنفاس كَرْميّة النَّسَبْ
كُميْت بَزَلْنا دَنَّها فتفجَّرت بأخْمَر قانٍ مثلَ ما قَطِر الذَّهب
فلمّا شربناها صَبَوْنا كأنّنا شربْنا السّرور المحض واللّهو والطَّرب
ولم نأت شيئاً يُسْخِط المجد فعلُه سوى أنّنا بعْنا الوقارَ من اللّعب
كأنّ كؤوس الشَّرْب وهي دوائرٌ قطائعُ ماء جامدٍ تَحْمِل اللّهَب(١٣١)

رابعاً : الصيد والقنص:

كانت رياضة الصيد منتشرة في العصر الفاطمي وخاصة بين الخلفاء والوزراء وكبار رجال الدولة (١٣٢) ، وهذه الرياضة كانت مظهراً من مظاهر لهوهم وتسليتهم ونظراً لحب الخليفة العزيز للصيد وشدة كلفه به كان يلقب بالخليفة الصياد "(١٣٣).

ولم يكن الصيد قاصراً على الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة ، بل أن بعض الناس كانوا يتخذون من الصيد حرفة يتعيشون منها(١٣٤) ، ولكن

الصيد بالنسبة للخلفاء وكبار رجال الدولة كان بمثابة ترويح عن النفس وتقوية للأبدان وممارسة رياضة عنيفة تبعدهم عن الكسل والدعة لعدم ممارستهم الحروب بأنفسهم غالباً ، فكان الصيد بمثابة حرب بين الصائد وفريسته تظهر فيها فنون القتال من خطط وكر وفر تحفز الصائد وتجعله مستعداً لمواجهة الأخطار وعدم الاستسلام للأمان والدعة(١٣٥).

وكانت تستخدم في الصيد الطيور الجارحة والكلاب الضخمة المدربة ، كما أن رحلة الصيد غالباً ما كانت تنتهي بقضاء أوقات سعيدة مرحة تقام فيها المآدب من لحوم الطيور والحيوانات التي وقعت في قبضة الصائدين وتصلح للأكل ، ويشترك في المأدبة المطربات والراقصات وتدور فيها كؤوس الشراب ، وفي هذا يقول صاحب البيزرة :

ولحمان مما أمسكته كلابنا عليـنا ومما صيد بالشبكات
وكأس وإبريق وناي ومزهر وساق عزيز فاتر اللحظات(١٣٦)

وهذه صورة من صور الصيد " بالباز " للشاعر تميم يصف فيها الباز ومخالبه الحادة القوية ، وعيونه التي يشبه بريقها فصي الذهب ، ذكي سريع الطيران ، لا يذهب الشبع بقوته وشدة طيرانه ، يقول :

وأشهبٍ مِخْلَبُهُ شَبَاهُ كلُّ ذوات الرِّيش من عِدَاه
بات يَهيج جوعَه غَدَاه كأنّ فصَّيْ ذهبٍ عيناه
في هامةٍ قد برزت وراه هادِيَةٍ من ضَلّ عن سُراه
يكاد أن يَخْرقه ذكاه لو طلب الكوكبَ لانتهاه
ماغالَه يوماً ولا أعياه مارَمَقتْ في الجوّ مُقْلَتَاه(١٣٧)

وبعد أن بين لنا قوة " الباز " يوضح لنا تميم كيف يصطاد فريسته ؟ ، فهو جائع ينتظر من يقريه إذ يقع نظره الحاد الثاقب على طير ماء يسمى " الحُبْرج " ، فيحل القانص قيده ويتركه مسرعاً نحو " الحبرج " ، وسرعان ما ينقض عليه بقوة باقراً صدره تاركاً إياه مضرجاً في دمائه حيث رأى أخا الحبرج فأسرع إليه ففعل ما فعله في أخيه " الحبرج " ، ولكنه لم يكتف بذلك

بـل انقض على طائرين آخرين ، فكان حصيلة قتلاه أربعة طيور . . . . . يقول تميم :

بيـــناه يبغـــي جمعـــاً قِـــرَاه ... إذ وقـــع الحُـــبْرُج فـــي رُؤْيـــاه
وحلّـــه القـــانصُ مـــن يُسْـــراه ... وطـــار يَهْـــوي نَحْـــوَه يَعْشَـــاه
حـــتَّى إذا قارَبـــه عَـــلاَه ... بوَقعـــةٍ بَـــزّ بهـــا قُـــوَاه
كمـــا وَهـــي مـــن شَـــطَنٍ رشَـــاهُ ... ثُـــم بَـــدَا وهْـــو علـــى قفـــاه
وسَـــلَّ مـــن فـــؤاده حشـــاه ... مُخَضَّـــباً مـــن دمـــه ثـــراه
يـــا شِـــقْوَة الحُـــبْرُج مـــا دَهـــاه ! ... لـــم يَسُـــؤ الـــبازيَ ، ماجـــناه
إذ رَجَـــع الحـــبرجُ مـــا لاَقـــاه ... ثُـــم رأى مـــن بعـــده أخـــاه
وبُـــركة(١٣٨)تَتْـــبَعُه أنـــثاه ... وكـــر لايجبُـــن عـــن هَـــيْجاه
وكـــلُّ بـــاز معـــه فـــتاه ... حـــتى سَـــقاه المُـــرَّ مـــن جـــناه
فأضـــحتِ الأربَـــعُ مـــن قـــتْلاه ... فلحْمـــنا الغريضُ من صَرْعاه(١٣٩)

وكانـــت هـــذه الطيور الجارحة تقدم هدايا ، ومن أمثلة ذلك ماكتب به تميم إلى أحد أصدقائه يستهديه طائراً جارحاً يسمى الباشق(١٤٠) ، يقول :

قـــد عَزَمْـــنا علـــى التصـــيّد والـــنُّزْ ... هَـــةِ ، والصَّـــيْدُ فـــي النَّـــنزُّه فَضْلُ
فـــيه ضَـــرْبٌ مـــن السياســـة والعَزْ ... م وفـــيه للحـــزْم عَقْـــدٌ وحَـــلُّ
ولدَيْـــنا مـــن الجَـــوَارح للطَّـــيْـ ... ـــرَ ضُـــروبٌ فهَـــنّ للطـــير قَـــتْلُ
ولدَيْـــك البواشِـــقُ الـــلاءِ قـــدْ رُحْـ ... ـــنَ كمـــا رُحْـــت مالقضـــلِك مثْلُ
فَتَقَضَّـــلْ بباشَـــقٍ كُـــلُّ مـــا فـــيـ ... ـــهِ جَـــناحٌ ومِخْلَـــبٌ فِـــيهِ نَصْـــل
طالمَـــا طـــارَدَ السُّـــمانَى وأضـــحَى ... دَمُهـــا وهْـــوَ تَحـــتَ رجلَـــيهِ نَعْـــل
وافـــرَ الدَّسْـــتِ مُـــرْهَفِ الرِّيش لولا ... صَـــدْرُه لـــم يكـــن له مِـــنه ثِقْـــلُ
واقتراحِـــي له علـــيكَ لعِلمِـــي ... أننـــي مخلِـــصٌ لديـــك مُـــدِلُّ(١٤١)

واســـتخدمت الكـــلاب المدربـــة للصيد، ويصف لنا تميم هذه الكلاب بأنها مرفوعة الأنف، واسعة الأشداق، سريعة تقهر الوحوش، من شدة سرعته لا تـــرى أثـــراً لأقدامه في الرمال، ولو استمر عاماً يجري لا يفتر . . . . . ، يقول :

قد أغتدي قبل الصباح المسفر والليلُ في ديجوجه(١٤٢) المعسكِر(١٤٣)

. . . . . .

بأكلب مخرنطمات ضُمَّر مهروتة أشداقها للحنجر

من كل مفتول الذراع قسْوَر(١٤٤) ليس بمسبوق ولا مقصّر

مستأسِد مؤيَّد مظفَّر يلاحِظ الوحشَ بعين المثأر

كأنه من لونه المشَّهر ملتحِف بُحلَّة من عَبْقر(١٤٥)

لو مرَّ يخطو في الكثيب الأعفر وهْو شديد العَدْو لم يؤثر

يكاد من سرعته في العِثَير(١٤٦) يسبق أولى زَوره بالمُؤْخِر

لو سار يجري سنَةً لم يَفتُر فصاد عشراً في الفضاء المقفِر

لا يضع الناب بغير منخر فأيّ جأب(١٤٧) عانةٍ لم يَجْزُر

وأي ثور للمَها لم يَنْحَر ضرَّجها من دمها المثعنجِر(١٤٨)

ومن مظاهر اللهو والتسلية في العصر الفاطمي استخدام الطيور المدربة على الألعاب والسباق ، وكان الخليفة العزيز يملك مجموعة منها وكذلك وزيره يعقوب بن كلس ، وكانت تجري مباريات في السباق بين حمام الخليفة والوزير ، وحدث أن سبق حمام الوزير في إحدى السباقات حمام الخليفة ، وأراد أعداء ابن كلس استغلال الفرصة للطعن فيه لدي الخليفة مظهرين أن الوزير يختار لنفسه الجيد من كل صنف ويترك للخليفة مادون ذلك ، فعندما بلغ هذا الأمر إلى ابن كلس كتب للخليفة :

قل لأمير المؤمنين الذي له العلا والنسب الثاقب

طائرك السابق لكنه جاء وفي خدمته الحاجب(١٤٩)

فأعجب الخليفة العزيز بذكاء وزيره ، وزال مابنفسه منه (١٥٠).

ويروي المقريزي خبراً طريفاً يدل على مدى حب الخلفاء الفاطميين للطيور النادرة وتربيتها وتدريبها، فيذكر أن الخليفة الظافر كان يملك في قصره ببغاء تقرأ المغوذتين وتستدعي كثيراً من الأستاذين بأسمائهم ونعوتهم(١٥١).

ومـــن مظاهـــر التســـلية فـــي العصـــر الفاطمي "الحواة" وكان يقبل على مشـــاهدتها العامـــة والخاصـــة، والحواة جماعة من الناس يلعبون بالثعابين وغيرها من الزواحف وذلك لسيطرتهم عليها، وكان لهم في ذلك فن ومقدرة كبـــيرة وكان بعض كبار الشخصيات لهم هواية جمع الأفاعي والحيات، وكان الحـــواة في مصر يصيدون الحيات الضخمة، ويتباهون فيما بينهم بأحجامها وبالنادر من اجناسها ويعرضون ألعابهم في المجالس الخاصة(١٥٢).

الملاهي والألعاب المسلية والهزليات :

وقـــد عـــرف القصـــر الفاطمي أنواعاً متعددة من الملاهي والألعاب المسلية والهزلـــيات ، فكانـــت هناك فرقة هزلية مهمتها التهريج والإضحاك والقيام بـــبعض الألعـــاب التي تدخل السرور والبهجة على الخليفة وأفراد الحاشية وكانت تلك الفرقة تعرف " بالضاحكية" (١٥٣) .

ومـــن الألعاب المسلية في العصر الفاطمي والتي كانت تجري في القصر ، ما كانت تقوم به الحيوانات المدربة على ألعاب التسلية التي يمكن تشبيهها بما يقدم في " ألعاب السيرك " حديثاً ويروي صاحب الذخائر والتحف أن ملك الـــروم أهدى إلى الخليفة المستنصر في سنة ٤٤٤هـ/١٠٥٢م هدايا جليلة وجملـــتها " ديـــاب عظـــام تلعـــب بالملاهـــي(١٥٤) ، كما كانت الفيلة من الحـــيوانات المدربة على الألعاب المسلية وكانت لها في خزائن القصر اجلة مـــن الحريـــر المذهـــب(١٥٥)، تـــرتديها في المواكب وعند قيامها بألعاب التسلية.

هوامش البحث :

١- الخطط: المقريزي، جـ١ ص ٣٤٩ .

٢- كتاب الروضتين في أخبارالدولتين النورية والصلاحية : لأبي شامة المقدسي، تحقيق د/ محمد حلمي أحمد، القاهرة ١٩٥٦م.

٣- الخطط: القريزي، جـ١، ص ١٨١ - مروج الذهب: المسعودي جـ ١ ص ١٧٧.

٤- الخطط : المقريزي ، طبعة بولاق ، جـ١ ص ٣٦٣ .

٥- نظم الفاطميين وروسمهم في مصر: د / عبدالمنعم ماجد ، ط ٣ ١٩٧٨م ، جـ٢ ص٩ .

٦- صبح الأعشى: القلقشندي ، جـ٣ ص ٤٩٣ - الخطط: المقريزي، جـ١ ، ص ٤٠١ .

٧- الأدب في العصر الفاطمي " الكتابة والكتاب " : د/ محمد زغلول سلام ، ص ٢٩ ، ٣٥ .

٨- الخطط - المقريزي : جـ١ ،١٠٤ .

٩- الخطط - المقريزي : جـ٢ ، ص ٢٤٣ ، ٢٩٠ - اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء : المقريزي القاهرة ١٩٤٨ص ٣١٧.

١٠- النكت العصرية: عمارة اليمني ص ٣٤ .

١١- الشخصية المصرية: د/ احمد سيد محمد ، ص ٧٩ .

١٢- الأدب في العصر الفاطمي (الشعر والشعراء) : د/ محمد زغلول سلام ، ص ١١ .

١٣- الحياة الاجتماعية في العصر الفاطمي " دراسة تاريخية وثائقية : د/ عبدالمنعم سلطان ، ص .

١٤ - الخطط: المقريزي، جـ١ ، ص ٢٦٨ .[نقلاً عن ابن زولاق].

١٥- الأدب في العصر الفاطمي (الكتابة والكتاب): د/ محمد زغلول سلام، ص ١٤٤-١٤٥ .

١٦- عصر الدول والإمارات "مصر" : د/شوقي ضيف ، ص٢٣.

١٧- الخطط: المقريزي ، جـ١ ص٢٥٥.

١٨- نفسه: جـ١ ، ص٢٥٥ .
١٩- ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمي : ص ٢٥٥ .
٢٠- نفسه: ص ٢٤١ . [عكن: جمع عكنة، وهي ما تطوى وتثنى من لحم البطن] .
٢١- نفسه : ص ٤٢٣ .
٢٢- دَرَجَتْه : مرت به وجرت عليه .
٢٣- الجوشن : الدرع .
٢٤- في أدب مصر الفاطمية: د/محمد كامل حسين ، ص ٢٩٧ .
٢٥- الأدب في العصر الأيوبي: د/ محمد زغلول سلام ، ص ٣٣٢.
٢٦- الأدب العربي في مصر: د/ محمود مصطفى ، ص ٢٣٤ .
٢٧- المغرب في حلى المغرب: لابن سعيد. ط القاهرة ١٩٥٢ ، جـ١، ص ٢٦٨ .
٢٨- المغرب في حلى المغرب : لابن سعيد ن جـ١ ، ص٣٠٨ .
٢٩- الخريدة " قسم شعراء المغرب " : تحقيق د/ عمر الدسوقي وعبدالعظيم .
٣٠- المغرب : ص ٩-١٠ .
٣١- ديوان تميم : ص ٣٠٤ .
٣٢- نفسه : ص ٢٨٥-٢٨٦ .
٣٣- الخطط: المقريزي، جـ٢، ص ١٨٥، كتاب القاهرة تاريخها من جوهر القائد إلى الجبرتي المؤرخ: د/عبدالرحمن زكي ، ص٩٣.
٣٤- المرجع السابق: هامش ص٤ .
٣٥- الخريدة: جـ٢ ص ٣٩٠ .
٣٦- الخطط: المقريزي ، جـ٢ ص ١٨٥ .
٣٧- نفسه: .
٣٨- ديوان تميم : ص ٢٤٢ .
٣٩- ديوان تميم : ص ٩٠ .
٤٠- نفسه : ص ٨٢ .
٤١- الرسالة المصرية: "لأبي الصلت" ،ص ٢١ ، الخريدة : ٢٣٠ .

٤٢- المغرب : ص١٠ .

٤٣- حسن المحاضرة : للسيوطي ، جـ٢ ، ص ٢٩٠ ، الشخصية المصرية : د/ احمد سيد ص ١٣٩ .

٤٤- الخطط : المقريزي ، جـ١ ، ص ٢٢٦ .

٤٥- نفسه : جـ١ ، ص ٤٧٨ .

٤٦- نهاية الأدب : النويري ، جـ ١ ، ص ٣٥٨ .

٤٧- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة : جمال الدين أبي المحاسن يوسف تغري بردي (٨١٣-٨٧٤هـ) جـ٣، ص١٠٠.

٤٨- الخريدة : جـ١ ، ص١٠١ .

٤٩- القاهرة تاريخها وآثارها من جوهر القائد إلى المؤرخ الجبرتي : ص ٣٤ .

٥٠- الشخصية المصرية : د/أحمد سيد ، ص ١٤١ .

٥١- الأدب العربي في مصر : د/ محمود مصطفى ، ص ٢٣٤ .

٥٢- الحياة الاجتماعية في العصر الفاطمي: د/عبدالمنعم سلطان ، ص.

٥٣- الديارات : الشابشي، بغداد ١٩٥١م ، ص١٩١ ، مسالك الأبصار: لابن فضل الله العمري، تحقيق د/احمد زكي، القاهرة ١٩٢٤م، ص ٣٦٢.

٥٤- مسالك الأبصار : ص ٣٧٣ .

٥٥- تاريخ الشرق الأدنى القديم: مصر والعراق: د/ عبدالعزيز صالح، ص٦٠ .

٥٦- الأدب في العصر الفاطمي "الكتابة والكتاب": ص١٢٨ .

٥٧- ديوان تميم: ص ١٢٧- [دير مريمنا: انظر في ابن فضل الله، جـ١ ص٣٦١، ومعجم البلدان، جـ٢، ص٧٠١، الديارات للشابشتي، وفي اليتيمية].

٥٨- ديوان تميم : ص ٢٤٨ .

٥٩- احتثه وحثه : إذا أعجله .

٦٠- ديوان تميم : ص ٣٤٣ .

٦١- نفسه : ص ٤٤٣ .

٦٢- النواويس: جمع ناووس، وهو مقابر النصارى. [تاج العروس].
٦٣- عرّس بالمكان: نزل فيه ليلاً للإستراحة.
٦٤- ديوان تميم: ص ٢٥٠- ٢٥١ .
٦٥- القصف : اللهو واللعب ز
٦٦- الصبوح : شرب الصباح ، والغبوق : شرب الماء .
٦٧- ديوان تميم : ص ٢٣٥ .
٦٨- نفسه : ص ٢٤١ . وانظر الديوان ص ٤٦ ، ٤٧ .
٦٩- بدائع البدائه : تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، ص ٢٢٧ .
٧٠- الأدب في العصر الفاطمي " الكتابة والكتاب " : ص ١٢٩ .
٧١- المغرب : ص ١٠ - ١١ .
٧٢- نفسه .
٧٣- الأدب في العصر الفاطمي " الكتابةوالكتاب ": ص١٢٩.
٧٤- الخطط : المقريزي ، جـ١ ، ص ٤٢٢ .
٧٥- نفسه: جـ١ ، ص ٤٨٨ - اتعاظ جـ٣ ص٩٦ .
٧٦- نفسه.
٧٧- حسن المحاضرة : السيوطي ، جـ١ ، ص ٣٨٥ .
٧٨- المغرب : ص ١٠- الأدب في العصر الفاطمي " الكتابة والكتاب " :ص١٢٣.
٧٩- حسن المحاضرة : جـ٣ ، ص ٣٨٦ .
٨٠- ديوان تميم : ص ٢٧٧ .
٨١- الشـــحر: صقع على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن ، وهو بين عدن وعمان ينسب إليه العنبر الشحري لكثرة وجوده بساحله ، [معجم البلدان لياقوت] .
٨٢- ديوان تميم : ص ٢٥١- ٢٥٢ .
٨٣- يقال برد مفوّف : أي رقيق موش . " حاشية الديوان" .
٨٤- ضـــرّج الثوب وغيره : إذا صبغه ولطخه بالدم ونحوه من الحمرة أو الصفرة .
٨٥- التجميش : ضرب من المغزلة والمداعبة .

٨٦- ديوان تميم : ص ٢١١.

٨٧- نفسه : ص ٢٥٦ .

٨٨- المغرب : جـ١ ، ص٢٥٩ ، [هزا : ساد] .

٨٩- ديوان تميم : ص ٣٤ .

٩٠- نفسه : ص ١٤١ .

٩١- نفسه : ص ١٦٣ .

٩٢- المجتمع المصري في العصر الفاطمي " دراسة تاريخية وثائقية " - د/ عبدالمنعم سلطان - ص ٢١٥ .

٩٣- هو نصر الله عبدالله بن قلاقس من أهل الإسكندرية ، توفى بعيذاب عند عودته من اليمن عام ٥٦٧هـ .[راجع الجريدة قسم شعراء مصر جـ١ ، ص١٤٥ .

٩٤- الخريدة جـ١ ، ص ٧٤ .

٩٥- ديوان تميم : ص٧٤ .

٩٦- الملاوي : قطع من الخشب لشد الأوتار .

٩٧- ديوان تميم: ص ٤٤٥ . [البموم : الأوتار الغليظة] .

٩٨- المرجع السابق : ص ٤٩ .

٩٩- الخريدة " قسم شعراء مصر" جـ١ ، ص١٦٢. [أوقص : قصير- يرقص : يسرع] .

١٠٠- ديوان تميم : ص ٢٠٥ .

١٠١- المرجع السابق .

١٠٢- المرجع السابق : ص٢٣٥ [خليع العذار : أي منهمك في الغي ولم يستح منه] .

١٠٣- هو أبو عبدالله محمد بن إبراهيم الأزدي الأندلسي ، ينسب إلى ابن هانىء الأندلسي ن كان مقيماً في مصر وتوفي قبل سنة ٥٦٠هـ. " انظر الخريدة ٢٤٨/١ " .

١٠٤- الخريدة : جـ٢ ، ص٢٦٢ .

١٠٥- الرسالة المصرية : ص ٢٠ .

١٠٦- الخريدة : جـ٢ ، ص ٢١٨ ، ٢١٩ .

١٠٧- راجع تاريخ الموسيقى العربية . ص١٨٢ :١٨٤ .

١٠٨- المرجع السابق : ص ٧٤ .

١٠٩- ذكـر المقريزي في خططه أعياد مصر الفاطمية تفصيلاً ، انظر خطط المقريزي جـ٢ ، ص٣٨٤ .

١١٠- الشخصية المصرية : د/ أحمد سيد محمد ، ص٢٤٠.

١١١- الخطط للمقريزي جـ٣ ، ص١٤٥ .

١١٢- هـو علي بن الحسين بن حيدرة ينتهي نسبه إلى عقيل بن أبي طالـب [انظر ترجمته وأشعاره في اليتيمة / جـ١ ، ص٤١٥ ، والمغرب [قسم الفسطاط] ص٢٠٥ ، وراجع الفوات جـ٢ ، ص ٩٩ ، والفـن ومذاهـبه في الشعر العربي ، ص٤٨٣ ، ومقدمة ديوانه (طبع الحلبي) يتحقق د/زكي المحاسني] .

١١٣- الخطط للمقريزي : جـ٢ ، ص٥٨٣ .

١١٤- ديوان تميم : ص ٤٦١ .

١١٥- المرجع السابق : ص ٣٨١ .

١١٦- ظافر الحداد : د/ حسين نصار ، ص٣٨ .

١١٧- ديوان تميم : ص ٢١٧ .

١١٨- المرجع السابق : ص ٢١٩ .

١١٩- الخريدة : جـ٢ ، ٢٢٠ .

١٢٠- الشخصية المصرية : د/ أحمد سيد محمد ، ص ٢٤٩.

١٢١- ديوان تميم : ص ٢٥٨ .

١٢٢- الخطط : المقريزي . جـ١ ، ص ٤٩٣ .

١٢٣- السلوك : المقريزي جـ١ ، هامش ص١٣٧،١٣٦.

١٢٤- ديوان تميم : ص ٤٢٥-٤٢٧ .

١٢٥- الخطط: المقريزي جـ٢ ، ص ٣٩٣ .

١٢٦- الذخائر والتحلف : ص ١٣ ، ١٤ .

١٢٧- ديوان تميم : ص ٢٢ ، ٢٣ .

١٢٨- ديوان (ابن النبيه المصري) : ص ١٢٤ .

١٢٩- الخريدة : جـ ٢ ، ص ١٥٤ .

١٣٠- ديوان تميم : ص ٧٨ .

١٣١- المرجع السابق : ص٣٥.

١٣٢- المرجع السابق : ص ٦٢ .

١٣٣- النجوم الزاهرة : لابن سعيد ص ٥٨ .

١٣٤- وفيات الأعيان : لابن خلكان ، ص ٧١ .

١٣٥- كتاب البيزرة : ص ١٩ .

١٣٦- المرجع السابق : ص ١٩ ، ٢٠ .

١٣٧- المرجع السابق : ٤٧ .

١٣٨- ديوان تميم : ص ٢٠ .

١٣٩- البُركة " بضم الباء " : طائر مائي أبيض .

١٤٠- ديوان تميم : ص ٢٠ ، ٢١.

١٤١- الباشق معرب باسمه : طائر حسن الصورة ، وهو أصغر الجوارح جثة ، يصطاد العصافير.(محيط المحيط) .

١٤٢- ديوان تميم : ص ٣٣٥ .

١٤٣- الديجوج : شدة الظلام . وعسكر الليل : تراكمت ظلمته .

١٤٤- ديوان تميم : ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

١٤٥- قسور : يقسر الوحش أي يقهره ويغلبه .

١٤٦- عبقر : قيل إنها بلدة باليمن أو الجزيرة توشي فيها الثياب والبسط ، وثيابها في غاية الحسن والجودة ذات أصباغ ونقوش رائعة (تاج العروس) .

١٤٧- العثير : التراب .

١٤٨- الجأب : الغليظ من حمر الوحش - والعانة : القطيع من حمر الوحش .

١٤٩- المثعنجر : السائل من ماء أو دمع .

١٥٠- راجع : ابن خلكان ز وفيات جـ ٢ ص٣٣٤ ، ومطالع الدور للغزولي جـ٢ ص ٢٦٠ ، والنجوم : لابن سعيد ص ٢١٥ .

١٥١- اتعاظ جـ ٣ ، ص ٢١٠ .

١٥٢- المرجع السابق جـ ٢ ، ص ٣١٩ .

١٥٣- المرجع السابق جـ٣ ، ص٥٧ .

١٥٤- الذخائر والتحف ، ص ٧٦ .

١٥٥- اتعاظ جـ ٢ ، ص ٢٨٤ .

المصادروالمراجع

١ـ اتعـاظ الحـنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، لتقي الله أحمد بن علي المقريزي، تحقيق/ د. جمال الشيال، القاهرة ١٩٤٨م.

٢- الأدب العربـي في مصر من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الأيوبي، محمود مصطفى، القاهرة ١٩٥٧م.

٣- الأدب فـي العصر الفاطمي (الشعر والشعراء) د/ محمد زغلول سلام – منشأة المعارف – الإسكندرية .

٤- الأدب فـي العصـر الفاطمي (الكتابة والكتاب) د/ محمد زغلول سلام – منشأة المعارف – الإسكندرية.

٥- بدائـع الـبدائه لعلي بن ظافر الأزدي – تحقيق / أبي الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٢٧٨هـ .

٦- تاريخ الشرق الأدنى القديم الجزء الأول (مصر والعراق) د/ عبدالعزيز صالح .

٧- تـاريخ الموسـيقى العربية – د . و. ج فارمر ، ترجمة د/حسين نصار من سلسلة ألف كتاب رقم ٧ – طبع مكتبة مصر بالفجالة ١٩٥٦م .

٨- حسـن المحاضـرة فـي أخبار مصر والقاهرة لجلال الدين السيوطي – القاهرة ١٩٦٨م .

٩- الحـياة الاجتماعـية في العصر الفاطمي (دراسة تاريخية وثائقية) د/ عبدالمنعم سلطان .

١٠- خـريدة القصـر وجـريدة أهل العصر للعماد الأصفهاني – طبع مصر القسم الرابع، شعراء المغرب ز

١١- الخطط المقريزية (المواعظ والأعبار بذكر الخطط والآثار) لتقي الدين أبي العباس أحمد بن علي المقريزي – مكتبة المثنى – بغداد .

١٢- ديوان ابن النبيه المصري - تحقيق / عمر محمد الأسعد - دمشق - ١٩٦٨م .

١٣- ديوان تميم بن المعز لدين الفاطمي - تحقيق/ محمد حسن الأعظمي - القاهرة - مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٧٧هـ ، ١٩٥٧م .

١٤- ديوان ظافر الحداد - تحقيق/ د. حسين نصار ، مكتبة مصر بالفجالة ١٩٦٩م .

١٥- الديارات - للشابشتي - تحقيق/ كوركيس عواد - بغداد ١٩٦٦م .

١٦- الرسالة المصرية - لأبي الصلت أمية بن عبدالعزيز الأندلسي، سلسلة نوادر المخطوطات - تحقيق/ عبدالسلام هارون - القاهرة ١٩٧٣م .

١٧- الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - لأبي شامة المقدسي - تحقيق/ د. محمد حلمي أحمد- مطبعة وادي النيل القاهرة ١٢٨٧هـ .

١٨- السلوك لمعرفة دول الملوك ، المقريزي ، تحقيق/ د. مصطفى زيادة ١٩٥٧م .

١٩- الشخصية المصرية في الأدبين الفاطمي والأيوبي - د/ أحمد سيد محمد - دار المعارف ١٩٧٨م .

٢٠- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء - لأبي العباس أحمد بن علي القلقشندي - طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر - الهيئة العامة .

٢١- عصر الدول والإمارات (مصر) د/شوقي ضيف- دار المعارف ط٢ . ١٩٩٠م .

٢٢- الفن ومذاهبه في الشعر العربي د/ شوقي ضيف - ط٢ .

٢٣- فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي - جزءان - تحقيق / محي الدين عبدالحميد .

٢٤- في أدب مصر الفاطمية - د/ محمد كامل حسين - القاهرة ١٩٦٣م .

٢٥- كتاب القاهرة تاريخها من جوهر القائد إلى الجبرتي المؤرخ - د/ عبدالرحمن زكي .

٢٦- المجتمع المصري في العصر الفاطمي (دراسة تاريخية وثائقية) د/ عبدالمنعم سلطان ١٩٨٥م .

٢٧- مسالك البصار في ممالك الأمصار – لابن فضل الله العربي – تحقيق/ د. أحمد زكي – القاهرة ١٩٢٤م .

٢٨- معجم البلدان – أبو عبدالله – ياقوت بن عبدالله الرومي الحموي – ٦٢٦هـ ، ط دار بيوت للطباعة والنشر ١٩٥٧م .

٢٩- المغرب في حلي المغرب (قسم شعراء مصر) لابن سعيد المغربي – تحقيق / د. زكي محمد حسن و د . شوقي ضيف ، و د. سيد .

٣٠- النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة لابن تغزي بردي ط دار الكتب المصرية بالقاهرة .

٣١- نظم الفاطميين ورسومهم في مصر ، د/ عبدالمنعم ماجد – ط٣ ، ١٩٧٨م .

٣٢- النكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية – عمارة اليمني – تحقيق/ د . نابرغ باريس .

٣٣- نهاية الأرب في فنون الأدب – لشهاب الدين النويري ، مطبوعات وزارة الثقافة مصر .

٣٤- يتيمة الدهر لأبي منصور الثعالبي ، ط١ القاهرة ١٩٣٤م .